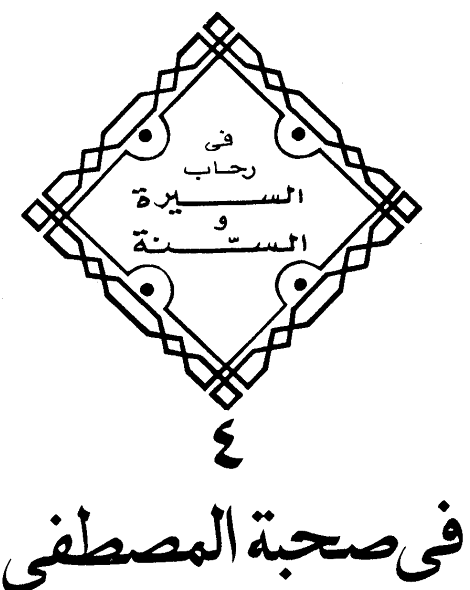


٤

فى صحبة المصطفى

دكتور جابر قميحة
◇جامعة إسلام آباد الإسلامية◇ باكستان◇

الإخراج الفنى عادل البطراوى

دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب المصرى دار الكتاب اللبنانى

الطبعة الأولى

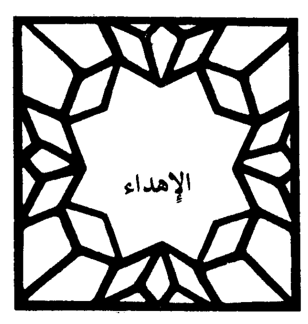
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

دار الكتاب المصري
القاهرة ج.م.ع
٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٢١٦٨/ ٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX: 21581
A.T.T 134 K.T.M.

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)
[illegible] ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

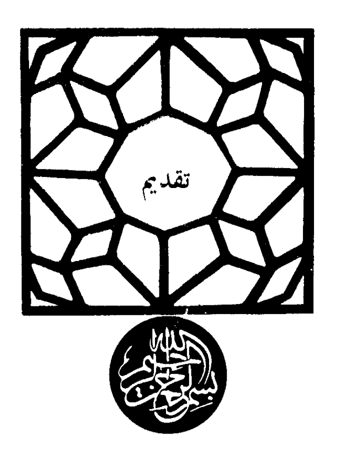
بسم الله الرحمن الرحيم





إلى صلاح الشربينى .. ابن المنصوره المسلم الذى عاش مجاهدا ومات غريبا . إليه أهدى هذه الصفحات

د . جابر قميحة



أرسل الله ـــ سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقذ البشرية من الضلال والفساد والتهتك والضياع .

وقد عاشت الرسالة المحمدية طوال هذه القرون الطويلة لا تبلى ولا تخلَق على الرغم مما تعرض له المسلمون من نكبات فى أنفسهم وأموالهم وبلادهم وفكرهم ، بل إن مما يحيّر أعداء الإسلام – وهم أصحاب الإمكانات الهائلة فى المال والقوة والسلاح والفكر – ما يرونه من انتشار الإسلام . وزيادة معتنقيه يوماً عن يوم ، وبخاصة كثير من كبار المفكرين والعلماء الغربيين .

ولا غرابة فى ذلك فقد تكلفت السماء بحفظ الرسالة الخاتمة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ، **وهى الرسالة**

التى جعل الله لها من القوة الذاتية ما يغذيها دائماً بقدرة التجدد ، وتلبية حاجات كل عصر ، والاستجابة للتطلعات الإنسانية فى مجال العلم والخلق والابتكار . ويبقى واجب المسلمين وخصوصاً العلماء والمفكرين منهم أن يقدموا للمجتمع بصفة دائمة ما يربطهم بالرسالة وصاحبها - عليه السلام - والسيرة النبوية كانت - وما تزال - منبعاً غنياً لا من الوقائع والأحداث فحسب ، ولكن من القيم الأخلاقية والإنسانية والسياسية والاجتماعية . وما أحوج الشباب بصفة خاصة أن يقرءوا السيرة قراءة فهم ومعايشة ، وأن يتفيئوا من نورها ما يلهمهم الصواب والرشاد ، ويضىء لهم الطريق فى المجتمعات المعاصرة التى تتلاطم بالتيارات الضالة المضلة ، والمبادئ التى أيسر ما يقال عنها أنها تتعارض مع أبسط قيم الإنسان ، وتهبط به إلى درك لا أنزل بقلمى إلى وصفه ، ويعف لسانى عن الخوض فيه .

ومن سنوات مديدة قرأت كتاب « **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** » للقاضى عياض بن موسى اليحصبى الأندلسى[1] وهو سفر ضخم من جزئين تعد صفحاته بالمئات ، وظل لهذا الكتاب فى نفسى مكانة أثيرة :

- فالرجل كتب كتابه بطاقة إيمانية قوية صادقة يحس القارئ بإشعاعاتها وانعكاساتها فى كل سطر من الكتاب .
- والكتاب على الرغم من أنه يخاطب فى المسلم « مشاعره الإيمانية » لم يهمل الجانب العقلانى ، فساق من الحجج والبراهين ما يقنع كل ذى فكر ناضج وعقل ثاقب .
- والكتاب لم يكن سرداً لوقائع السيرة وأحداثها ولكنه أعطى الاهتمام الأكبر للشمائل والملامح النبوية ، وما يجب على المسلمين تجاه المقام الجليل لسيدنا رسول الله ﷺ .
- والكتاب يربط الرسالة الخاتمة بغيرها من الرسائل ، كما يضع مقام النبوة المحمدية بين غيره من مقامات النبوات حتى يتعرف المسلم على « **الأصالة العَقَدية** » للشريعة الإسلامية .
- وأخيراً يعيش المسلم مع المؤلف « كتاب الله وسنة رسوله » فى هذا الحشد العظيم من الآيات الجليلة والأحاديث النبوية الشريفة ، وكل ذلك ساقه المؤلف مساق الشواهد والأدلة .

---

(١) ولد سنة ٤٧٦ هـ وعاش حياة حافلة ، بالعلم وانتقل إلى رحمة ربه بمراكش ببلاد المغرب فى جمادى الآخرة ٥٤٤ هـ .

وحملت الكتاب معى فى رحلتى المباركة إلى إسلام آباد ، وحدثتنى نفسى أن أقدم منه للقارئ العربى ما يفيده فى دينه ودنياه . **وكانت هذه الفصول التى أسميتها « فى صحبة المصطفى »** وهو يمثل . **قطوفاً واستخلاصات من كتاب الشفا** » وعلىّ أن أقدم بين يدى القارئ الخطوط الآتية :

١ – أبقيت فى هذه القطوف على الأسلوب الأصلى للمؤلف .. وهو أسلوب يقترب إلى حد كبير من أسلوبنا العصرى .

٢ – اكتفيت من الشواهد القرآنية وغيرها بما يسعف فى التدليل على السمة أو الواقعة لأن الشواهد من القرآن والحديث كثيرة لا تتسع لها مثل هذه الصفحات .

٣ – فسَّرت فى إيجاز ما يحتاج إلى تفسير حتى لا يجد القارئ مشقة فى الفهم ونَصَبا .

وواضح أننى لم ألتزم الترتيب الذى التزمه المؤلف ولم ألزم نفسى بالعناوين التى صدّر بها فصوله .

وأعترف فى النهاية أن ما أقدمه فى هذه الفصول لا يغنى عن قراءة هذا السفر الضخم (**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**) . وإن قدمت فى هذه الفصول زهرة من هذه الروضة الخالدة تنم عليها .. وتحمس القارئ المسلم إلى ظلالها النادية وعبيرها الفواح والحمد لله رب العالمين .

غرة المحرم ١٤٠٥

دكتور جابر قميحة

إسلام آباد – باكستان



الفصل الأول

ملامح الصورة



أولا ، الملامح الجسدية

كان رسول الله — ﷺ — أزهر اللون(١) ، أدعج(٢) ، أنجل(٣) ، أشكل(٤) ، أهدبَ الأشفار(٥) ، أبلج(٦) ، أزج(٧) ، أقنى(٨) ، أفلج(٩) ، مدورَ الوجه ، واسع الجبين ، كثّ اللحية ، سواءَ البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عبْل(١٠) العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل(١١) الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق المسربة(١٢) ، ربعةَ القد ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد ، ومع ذلك فلم يكنْ يماشيه أحدٌ ينسب إلى الطول إلّا طالَهُ — ﷺ — ، رَجْل الشعر ، إذا افترّ ضاحكا افتر « أبدى أسنانه » عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حَب الغمام ، إذا تكلم رئُى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بمطهم(١٣) ، ولا مكلْثم(١٤) ، متماسك البدن ، ضرب اللحم(١٥) .

---

(١) مشرق اللون حسنه
(٢) شديد سواد الحدقة
(٣) واسع العينين
(٤) فى بياض عينيه حمرة قليلة
(٥) كثير شعر الجفنين
(٦) مشرق الوجه
(٧) دقيق شعر الحاجبين مع تقوسهما
(٨) مرتفع قصبة الأنف
(٩) ثناياه متباعدة
(١٠) عبل : ضخم وممتلىء
(١١) تام
(١٢) المسْرُبة : خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة
(١٣) المطهم : المدور الوجه
(١٤) المكلثم : المجتمع لحم وجهه
(١٥) خفيف اللحم

وقالت أم معبد فى بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب .

وفى حديث ابن أبى هاله يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر .

وقال علىّ فى آخر وصفه له : **من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه** .

★★★

ومن أبرز صفاته نظافة جسمه ، وطيب ريحه وعرقه ، ونزاهته عن الأقذار ، وعورات الجسد(١) ، فكان أن خصه الله تعالى فى ذلك بخصائص لم توجد فى غيره ، ثم تممها بنظافة الشرع ، وخصال الفطرة العشر(٢) .

وقال عليه السلام « **بُنى الدينُ على النظافة** » .

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال « ما شممت عنبرا قط ، ولا مسكا ، ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله ــ ﷺ ــ » .

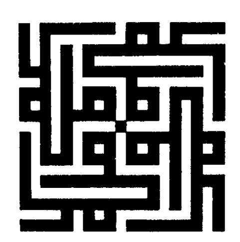
وروى أن النبى ــ ﷺ ــ لم يكنْ يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عُرف أنه سلكه من طيبه .

وعن علىّ ــ كرم الله وجهه ــ قال « غسَّلت النبى ــ ﷺ ــ

---

(١) أى النقص والعيوب الجسدية

(٢) سنن الفطرة هى : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والمضمضة ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، ونتف شعر العانة وانتقاص الماء أى الاستنجاء ، وقد يضاف إليها الختان بدل المضمضة .



فذهبت أنظر ما يكون من الميت[1] ، فلم أجدْ شيئا ، فقلت : طبتَ حيا وميتا ، وسطعت منه رائحة طيبة ، لم نجد مثلها قط » .[2]

ووصفه أبو هريرة بقوله « ما رأيتُ أحداً أسرع من رسول الله — ﷺ — فى مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهدُ أنفسنا وهو غير مكترث . وفى صفته — عليه السلام — أن ضحكه كان تبسما ، إذا التفت التفت معا ، وإذا مشى مشى تقلعا ، كأنما ينحط من صبب .

★★★

وكان — عليه السلام — قوىّ الجسد والتحمل ، وقد جاءت الأخبار بأنه صرع رُكانَة أشد أهل وقته ، وكان دعاه إلى الإسلام .

وصارع أبا ركانة فى الجاهلية ، وكان شديدا ، وعاوده ثلاث مرات ، كل ذلك يصرعه رسول الله — ﷺ .

(١) أى من خبث ورائحة كريهة .

(٢) راجع المقاصد الحسنة للسخاوى صـ ١٤٦ حديث رقم ٣٠٢ . رأى العراق فى إحياء علوم الدين للغزلى كتاب الطهارة ج ١ صـ١٢٤ طبعة عيسى الحلبى هامش الشفا للقاض عياض ج ١ صـ ١٥٢ ط مكتبة الفارابى .



ثانيا الملامح الخلقية والنفسية والعقلية

حسن الخلق هو الاعتدال فى قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها ، دون الميل إلى منحرف أطرافها ، وجميعها قد كانت خلق نبينا — ﷺ — على الانتهاء فى كمالها ، والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله عليه بذلك ، فقال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [1]

وكان فيما ذكره المحققون مجبولا[2] عليها فى أصل خلقته ، وأول فطرته ، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة ، إلا بجود إلهى ، وخصوصية ربانية ، وهكذا لسائر الأنبياء .

---

(١) القلم ٤

(٢) مجبولا : مطبوعا .

ومن أهم الملامح المعنوية فى سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ:

(١) الحلم والاحتمال والعفو :

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة ، والصبر على ما يكره فبينها فروق :

فالحلم : حالة تَوقُّر وثبات عند الأسباب والمحركات .

والاحتمال : حبس النفس عند الآلام والمؤذيات .

والصبر : مثله .

والعفو : هو ترك المؤاخذة .

وهذا كله مما أدب الله ـ تعالى ـ به نبيه ـ ﷺ ـ فقال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[(1)]

وقد روى أن النبى ـ ﷺ ـ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عليه السلام ـ عن تأويلها ، فقال : حتى أسأل العَالِم ، ثم ذهب فأتاه فقال : يا محمد ، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

وقال تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[(2)] .

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .

(٢) الأحقاف ٣٥ .

وروى أن النبى — ﷺ — لما كسرت رباعيته ، وشج وجهه يوم أحد ، شق ذلك على أصحابه شقا شديدا ، وقالوا : لو دعوت عليهم : فقال « **إنى لم أبعث لعانا ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون** » .

فانظر ما فى هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان ، وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم : إذ لم يقتصر — ﷺ — على السكوت عنهم ، حتى عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا وشفع لهم ، فقال « اغفر » ، أو « اهد » ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله « لقومى » ، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال « **فإنهم لا يعلمون** » .

ومن عظيم خبره فى العفو عفوه عن اليهودية التى سمته فى الشاة بعد اعترافها(١) .

وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبى بن سلول وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم فى جهته قولا وفعلا ، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم « **لا . لئلا يتحدث أن محمدا يقتل أصحابه** » .

قالت عائشة — رضى الله عنها — « ما رأيتُ رسولَ الله — ﷺ — منتصراً من مَظْلمة ظُلِمَها قطّ ، مالمْ تكنْ حرمةً من محارمِ الله ، وما ضَرَبَ بيده شيئاً قطّ إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما ضَرَبَ خادما ولا امرأة » .

---

(١) هذا هو الراجح من أمرها ، وإن ذهبت بعض الروايات إلى أنه أمر بقتلها . وكان ذلك فى غزوة خيبر .

وجاءه زيد بن سَعْنة قبل إسلامه يتقاضاه دينا عليه ، فجبذ ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له ، ثم قال « إنكم يا بنى عبد المطلب مطل »[1] ، فانتهره عمر ، وشدد له فى القول ، والنبى — ﷺ — يبتسم ، فقال رسول الله — ﷺ — « **أنا ، وهو ، كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرنى بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى** » ثم قال « **لقد بقى من أجله ثلاث** » وأمر عمرَ يقضيه ماله ، ويزيده عشرين صاعا لما روعه .

وتُجمع الآثار على أن رسول الله — ﷺ — كان أبعد الناس غضبا ، وأسرعهم رضى .

(٢) الجود والكرم :

تتقارب معانى الجود والكرم والسخاء والسماحة ، وقد فرّق بعضهم بينها بفروق ، فجعلوا **الكرم** : الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم خطره ونفعه ، وسموه أيضا جرأة ، وهو ضد النذالة .

والسماحة : التجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس ، وهو ضد الشكاسة[2] .

والسخاء : سهولة الإنفاق ، وتجنب اكتساب مالا يحمد ، وهو ضد التقتير .

---

(١) أى تماطلون وتسوفون فى الوفاء بحقوق الآخرين .

(٢) الشكاسة : سوء الخلق ومنه قوله تعالى : « شركاء متشاكسون » أى متشاجرون لشكاسة خلقهم . اهـ المفردات فى غريب القرآن .

وكان النبى — ﷺ — لا يُوازَى فى هذه الأخلاق الكريمة ، ولا يُبارىَ ، وبهذا وصفه كل من عرفه :

يقول جابر بن عبد الله ما سئل رسول الله — ﷺ — عن شيء فقال لا .

وقال ابن عباس : كان النبى — ﷺ — أجود ما كان فى شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل — عليه السلام — أجود بالخير من الريح المرسلة .

ويروى أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه ، وقال : أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة .

وأعطى غير واحد مائة من الإبل .

وأعطى صفوان مائة ثم مائة ، ثم مائة .

ورد على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال : **ما عندى شيء ، ولكن ابْتَعْ عَلَىّ ، فإذا جاءنا شَيء قضيناه .**

فقال له عمر — رضى الله عنه —: ما كلفك الله ما لاتقدر عليه ، فكره النبى — ﷺ — ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

فتبسم — ﷺ — وعُرف البشْر فى وجهه ، وقال : « **بهذا أُمِرْت** »

وأتاه رجل يسأله ، فاستلف له رسول الله — ﷺ — نصف وسق ، فجاء يتقاضاه ، فأعطاه وسقا ، وقال « **نصفه قضاء ، ونصفه نائل** »

(٣) الشجاعة والنجدة :

الشجاعة : فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل .

والنجدة : ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت ، حيث يحمد فعلها دون خوف .

وكان النبى — ﷺ — بالمكان الذى لا يجهل ، وقد حضر المواقف الصعبة ، وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وأحصيت له فرّة ، وحفظت عنه جولة سواه .

عن العباس — رضى الله عنهما — قال : فلما التقى المسلمون والكفار — فى حنين — ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله — ﷺ — يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها ، أكفُّها إرادة أن لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركابه ، ثم نادى « **ياللمسلمين** » .

وقال على — رضى الله عنه —: إنا كنّا إذا حمى البَأسُ واحمرَّتْ الحَدقَ ، اتقينا برسول الله — ﷺ —. فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منْه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى — ﷺ — وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

ولما رآه أبى بن خلف يوم أحد ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، وقد كان يقول للنبى — ﷺ — عندما افتدى يوم

بدر : عندى فرس أعلفها كل يوم فَرَقا[1] من ذرة أقتلك عليها . فقال له النبى — ﷺ — « **أنا أقتلك إن شاء الله** » فلما رآه يوم أحد شد أبىّ — وهو على فرسه — على رسول الله — ﷺ — فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال النبى — ﷺ — « **هكذا** » أى خلّوا طريقه ، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنها تطاير الشَّعْراء[2] عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله النبى — ﷺ — فطعنه فى عنقه طعنة تدأدَأ[3] منها عن فرسه مرارا ، فرجع إلى قريش وهو يقول : « قتلنى محمد » . وهم يقولون « لا بأس عليك » « فقال » لو كان ما فىّ بجميع الناس لقتلهم . أليس قد قال « أنا أقتلك والله لو بصق علىّ لقتلنى »

فمات بسرف[4] فى قفولهم إلى مكة .

(٤) الحياء والإغضاء :

الحياء : رقة تعترى وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته ، أو ما يكون تركه خيرا من فعله .

والإغضاء : التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته . وكان النبى — ﷺ أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء .

---

(١) مكيال يساوى ستة عشر رطلا .

(٢) الشعراء : ذباب يقع على ظهر الإبل والحيوان فيؤذيه .

(٣) تدأدأ : تدحرج .

(٤) سرف : مكان فى مكة على مسافة ستة أميال .

قال تعالى .. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[1]

وعن عائشة — رضى الله عنها — كان النبى — ﷺ — إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول : « **ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا** » ينهى عنه ، ولا يسمى فاعله .

وقالت عائشة — رضى الله عنها — فى الصحيح : لم يكن النبى — ﷺ — فحاشاً ، ولامتفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق . ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح .

وروى عنه : أنه كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد ، وأنه كان يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره[2] .

(٥) حسن العشرة والأدب وبسط الخلق :

قال على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى وصفه عليه الصلاة والسلام « كان أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة » .

---

(١) الأحزاب : ٥٣ .

(٢) قال السيوطى : أنه كان يكنى عما اضطره الكلام إليه معلوم من أحواله وأقواله فى الأحاديث المشهورة أ هـ محقق الشفا ج ١ صـ ٢٤٣ .

وكان رسول الله — ﷺ — يؤلفهم ، ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بِشْره ، ولا خلقه . يتعهد أصحابه ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

من جالسه أو قاربه لحاجة صابرهُ حتى يكون هو المنصرف عنه .

ومن سأله حاجة لم يردّه إلّا بها ، أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطهُ وخُلقُه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء .

قال أنس — رضى الله عنه — خدمتُ رسولَ الله — ﷺ — عشر سنين ، فما قال لى « أفّ » قط ، وما قال لشىء صنعتهُ : لم صنعتَه ؟؟ ولا لشىء تركتُه : لم تركتَه ؟؟ » .

وكان يمازح أصحابه ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولم يرقط مادّا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد ، يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ، ويكنى أصحابه[1] ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهى أو قيام ، وروى أنه كان لا يجلس إليه أحد ، وهو يصلى إلا خفف صلاته ، وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

(١) لأن نداء الرجل بكنيته فيه توقير وتكريم له على ما تعارف العرب .

وكان أكثر الناس تبسما ، وأطيبهم نفسا ، مالم ينزل عليه قرآن ، أو يعظ ، أو يخطب[1] .

(٦) الشفقة والرحمة :

قال بعض السلف « من فضله ـــ ﷺ ـــ أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه ، فقال

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2]

وروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال « **آحْسَنْتُ إليكَ** » ؟ قال الأعرابى « لا ، ولا أجملتَ » فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم : **أن كفّوا** ، ثم قام ودخل منزله ، فأرسل إليه ـــ ﷺ ـــ ، وزاده شيئا ، ثم قال : « **آحسنتُ إليك** » ؟! قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة » فقال له النبى ـــ ﷺ ـــ « **إنك قلتَ ما قلتَ ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدى ، حتى يَذْهَبَ ما فى صدورهم عليك** » قال « نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا »

---

(١) أى إلا فى المواقف الجادة والمسائل الجلّى التى لا تحتمل التساهل وغض النظر .
(٢) يونس ١٢٨ .

ومن شفقته ـ ﷺ ـ أن دعا رَبّه وعاهده . فقال « **أيما رجل سببتُه ، أو لعنتهُ ، فاجعلْ ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وطهورا ، وقربةً تقربُه بها إليك يوم القيامة** » .

وروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال للنبى ـ ﷺ ـ « إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك » فقال : « **أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم** » .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة فجعلت تردده ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « **عليك بالرفق** » .

(٧) الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم :

يروى أن النبى ـ ﷺ ـ كان إذا أُتى بهدية قال : **اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة** .

ولما جاءه وفد لنجاشى الحبشة قام رسول الله ـ ﷺ ـ يخدمهم . فقال له أصحابه « نكفيك » فقال : **إنهم كانوا لأصحابنا مُكرْمين ، وإنى أكافئهم** » .

ولما جىء بأخته من الرضاعة الشيماء[1] فى سبايا هوازن ، وتعرفت له ، بسط لها رداءه ، وقال لها « **إن أحببت أقمت عندى مكرَّمةً مُحبَّة ، أو متعتُك ، ورجعتِ إلى قومك** » فاختارت قومها فمتعها .

---

(١) هى بنت حليمة السعدية التى أرضعت النبى ـ ﷺ ـ

وكان يبعث إلى ثويبة ـــ مولاة أبى لهب ـــ مرضعته بِصِلةٍ وكسوة ، فلما ماتت سأل من بقى من قرابتها فقيل لا أحد .

وفى حديث خديجة ـــ رضى الله عنها ـــ أنها قالتْ له ـــ ﷺ ـــ: أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتُقْرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

(٨) التواضع :

وأما تواضعه ـــ ﷺ ـــ على علو منصبه ، ورفعة رتبته ، فكان أشد الناس تواضعا ، وأعدَمَهم كِبْرا .

وقد روى أنه قال لبعض الصحابة حينما خرج عليهم فقاموا احتراما له « **لا تقوموا كما يقومُ الأعاجمُ يعظم بعضهم بعضا** » .

وقال : إنما أنا عبد ، آكلُ كما يأكلُ العبد ، وأجلسُ كما يجلس العبد .

وكان يركب الحمارَ ، ويُردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس .

وقال أنس :« حج رسول الله ـــ ﷺ ـــ على رحْلٍ رَثٍ ، وعليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم ، فقال : « **اللهم اجعله حجا مبرورا ، لا رياءَ فيه ولا سُمعة** » .

ويروى أنه ـــ عليه السلام ـــ كان فى بيته فى مهنة أهله[1] ، يغلى

(١) فى مهنة أهله : أى يقوم بما تقوم به زوجاته من أعمال منزلية : إشفاقا عليهن وتواضعا .

ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويقُمُّ البيت ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

وعن أنس — رضى الله عنه — إنْ كانتْ الأمةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله — ﷺ — ، فتنطلق به حيث شاءت حتى تقضى حاجتها .

وقال أبو هريرة — رضى الله عنه — دخلت السوق مع النبى ﷺ « فاشترى سراويل ، وقال للوزان « **زن وأرجح** » .. فوثب إلى يد النبى — ﷺ — يقبلها ، فجذب يده ، وقال : « **هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم** » .

(٩) العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة .

وأما عدله ، وأمانته وعفته ، وصدق لهجته ، فكان ﷺ آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف بذلك محادُّوه[1] وعداه .

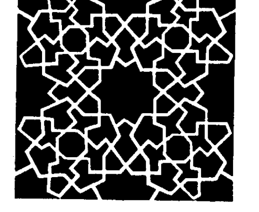
وكان يسمى قبل نبوته **الأمين** .

وقال تعالى:
﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[2] .

---

(١) محادوه : أى مخالفوه .

(٢) التكوير ٢١ .



أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ .

وقال ـــ عليه السلام ـــ :« **والله إنى لأمين من فى السماء أمين من فى الأرض** » .

وقال النضر بن الحارث(١) لقريش « قد كان فيكم محمد غلاما أو حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر !! لا والله ما هو بساحر » .

وقال عليه السلام : « **ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممتُ بسوء حتى أكرمنى الله برسالته :**

قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمرُ الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة ، وسمعت عَزْفا بالدفوف والمزامير لعُرس بعضهم ، فجلستُ أنظرُ فضرب على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئا . ثم عَرانى مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهمّ بعد ذلك بسوء » .

---

(١) وهو أحد الكفار العتاة ، وقد أمر النبى ـــ ﷺ ـــ بقتله بعد بدر .

(١٠) الوقار والصمت والتؤدة والمروءة وحسْن الهدى :

قال بعض الصحابة : كان النبى ــ ﷺ ــ لا يتكلمُ فى غير حاجة ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل .

وكان ضحكه تبسما ، وكلامُه فَصْلا ، لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به .

مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تُؤْبَنُ[١] فيه الحُرَم ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير .

قال ابن ابن أبى هالة : كان سكوته على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر .

قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يحدث حديثا لوعده العادّ أحصاه » ومن مروءته نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلى ، والأمر بالسواك ، وإنقاء البراجم[٢] والرواجب[٣] ، واستعمال خصال الفطرة .

(١١) الزهد فى الدنيا :

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت ما شبع رسول الله ــ ﷺ ــ ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله .

---

(١) تؤبن : تنال وتجرح .

(٢) البراجم : جمع برجمة ، وهى مفصل الأصابع من ظاهر الكف .

(٣) الرواجب : جمع راجبة : وهى مفصل الأصابع من باطن الكف .

وقالت « ماترك رسول الله — ﷺ — دينارا ، ولا درهما ، ولا شاة ، ولا بعيرا .

وقال عليه الصلاة والسلام « **إنى عُرض علىّ أن يُجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك** » .

وعن عائشة — رضى الله عنها — إنما كان فراشه — ﷺ — الذى ينام عليه أُدما ، حشوهُ ليف .

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : لم يمتلىء جوف النبى — ﷺ — سبعا قطّ ، ولم يبث شكوى إلى أحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ، ورغد عيشها ، ولقد أبكى له رحمة مما أرى به ، وأمسح يدى على بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك !! فيقول : **يا عائشة . مالى وللدنيا ، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى استحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصّر بى غدا دونهم . وما من شىء هو أحبّ إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى** » .

قالت : فما أقام بعد إلا شهرا حتى توفى — ﷺ — .

(١٢) الخوف من الله والطاعة له وشدة العبادة :

وأما خوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه بربه .

قال عليه السلام « **إنى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطت[١] السموات ، وحق لها أن تئط** . ما فيها موضعُ أربع أصابع إلا وملَكَ واضعٌ جبهته ساجداً لله . والله لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتمْ إلى الصُّعُدات تَجْأَرُون إلى الله ..

وروى أنه ـــ ﷺ ـــ كان يصلى حتى ترم قدماه ؛ فقيل له : أتكلَّفُ هذا ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!

قال : **أفلا أكون عبدا شكورا ؟!!**

وقال عوف بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ كنت مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليلة ، فاستاك ثم توضأ ، ثم قام يصلى ، فقمت معه . فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل[٢] ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ[٣] ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » ، ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك .

---

(١) أحدثت صوتا لثقل ما تحمل فوقها .

(٢) أى توقف عن مواصلة القراءة ليتضرع إلى الله بالسؤال .

(٣) أى : دعا الله أن يعيذه ويقيه والمسلمين عذاب النار .

قال أحد الصحابة . كان رسول الله — ﷺ — متواصل الأحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة .

وقال آخر : أتيت رسول الله — ﷺ — وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزير المرجل .

وقال ﷺ : « **إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة** » وروى « **سبعين مرة** » .

(١٣) الفصاحة والبلاغة :

أوتى النبى — ﷺ — **جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعُلّم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها** بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

وليس كلامه مع قريش والأنصار ، وأهل الحجاز ، ونجد ككلامه مع أقيال[١] حضرموت وملوك اليمن :

وانظر كتابه إلى همدان « إن لكم فِراعَها[٢] ، ووهاطها[٣] وعزازها[٤] ، تأكلون علافها[٥] ، وترعون عفاءها[٦] ... »

---

(١) أقيال : جمع قَيْل : وهو الحاكم والأمير .

(٢) الفراع : ما أرتفع من الأرض .

(٣) الوهاط : الأرض المطمئنة .

(٤) العزاز : ما خشن من الأرض .

(٥) العلاف : علف الماشية .

(٦) العفاء : المباح الذى لا يملكه أحد .

ومن كتابه لوائل بن حجر الملك الحميرى « إلى الأقيال العباهلة[1] والأرواع[2] المشابيب[3] ... »

فلما كان كلام هؤلاء على هذا الحد ، وبلاغتهم على هذا النمط ، وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم ، ليبين للناس ما نزل إليهم ، وليحدث الناس بما يعلمون .

وأما كلامه المعتاد ، وفصاحته المعلومة ، وجوامع كلمه ، وحكمه المأثورة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين ، وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب . ومنها :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

« المرء مع من أحب » .

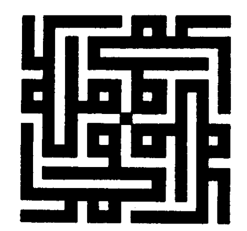
« الناس كأسنان المشط » .

« أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما » .
« الظلم ظلمات يوم القيام » .

« اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ».

---

(١) العباهلة : ملوك اليمن .
(٢) الأرواع : مشرق الوجوه .
(٣) المشابيب : السادة .



ومن كلماته التى لم يسبق إليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ فى قالبه عليها :

— **حمى الوطيس .**
— **مات حتف أنفه .**
— **لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .**

وقد قال له أصحابه : ما رأينا الذى هو أفصح منك فقال **« وما يمنعنى ؟!! وإنما أنزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين »**

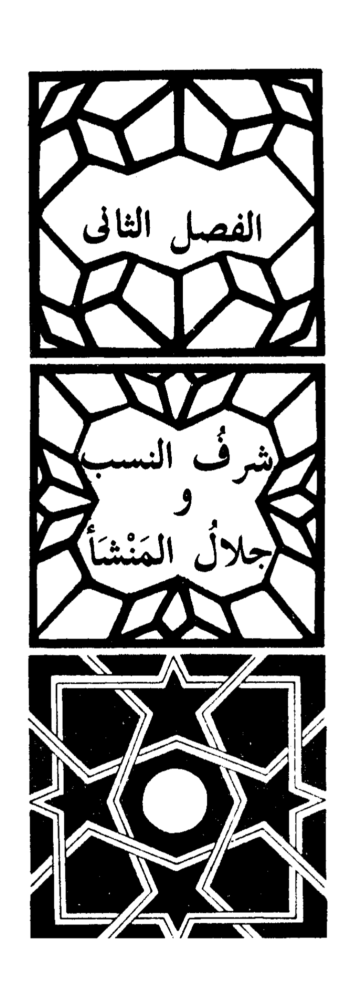
وقال مرة أخرى **« أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد »**[1]

فجمع له بذلك — ﷺ — قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعةُ ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى الذى لا يحيط بعلمه بشرٌ .

وقالت أم معبد فى وصفها له :

حلو المنطق ، فصل[2] ، لا نزرٌ ولا هذْر[3] كأن منطقه خرزات[4] نُظمن . وكان جهير الصوت حسن النغمة .

(١) هذا الحديث رواه أصحاب الغرائب ، ولا يعرف له سند .. الخ
(٢) فصل : واضح مبين ، أو قاطع فى حكمه .
(٣) أى : لا يوجز الإيجاز المخل ، ولا يطنب الإطناب الذى لا فائدة منه .
(٤) جواهر .


الفصل الثانى
شرفُ النسب
و
جلالُ المَنْشأ

وشرف نسبه ، وكرم بلده ومنشئه لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ، ولا بيان مشكل ، ولا خفى منه .

فإنه نخبة(١) بنى هاشم ، وسلالةُ قريش وصميمُها ، وأشرفُ العرب وأعزهم نفرا من قِبل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة ، من أكرم بلادِ الله على الله ، وعلى عباده .

ويروى عنه — ﷺ — أنه قال « **إن الله اصطفى من ولدِ إبراهيمَ إسماعيلَ ، واصطفى من ولدِ إسماعيلَ بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانةَ قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم كما يروى عنه قوله :**

« **بعثتُ من خير قرون بنى آدم قرنًا فقرنا ، حتى كنت فى القرن الذى كنت منه** » .

★★★

وعن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — :

إن الله تعالى قسم(٢) الخلق قسمين ، فجعلنى فى خيرهما قسما ، فذلك قوله تعالى « وأصحاب اليمين » « وأصحاب الشمال » ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين .

(١) النخبة : الخلاصة والصفوة .

(٢) حديث أن الله تعال قسم الخلق — الخ أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة بهذا اللفظ ج١ صـ١٣٢ طبع المكتبة السلفية المدينة المنورة وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب علامات النبوة « باب : فى كرامة أصله — ﷺ .

ثم جعل القسمين أثلاثا ، فجعلنى فى خيرها ثلثا ، فذلك قوله تعالى : « فأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون السابقون » فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى من خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : (١)

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

، فأنا أتقى ولد آدم ، وأكرمهم على الله عز وجل ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتا ، فجعلنى من خيرها بيتا ، فذلك قوله تعالى : (٢)

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

وروى عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : **أعطيت خمسا لم يعطهن نبيٌّ قبلى : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيّما رجلٍ أدركته الصلاةُ فليصلّ ، وأُحلّتْ لى الغنائمُ ولم تحل لنبيٍّ قبْلى ، وبعثتُ إلى الناسِ كافة ، وأعطيتُ الشفاعة »**

(١) الحجرات ١٣ .
(٢) الأحزاب ٣٣ .

وعنه عليه السلام :

« أنا محمد النبى الأمى ، لا نبىّ بعدى ، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه ، وعُلِّمْتُ خزنة النار ، وحملة العرش » .

وروى عنه ـــ عليه السلام ـــ قوله :

« ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أُعْطِي من الآيات ما مثلُه آمنَ عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُ وحْياً أوْحى الله إلىّ ، فأرجُو أنْ أكونَ أكثرهُم تابعاً يوَم القيامة » .

معنى هذا عند المحققين : بقاء معجزته ما بقيت الدنيا ، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها . ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عيانا لا خبرا إلى يوم القيامة .

وقال ﷺ **« إن الله قد حَبَس عن مكة الفيل ، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين ، وأنها لا تحُل لأحدِ بعدى ، وإنما أُحِلّتْ لى ساعةً من نهار » .**

***

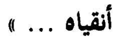
وقال له نفر من صحبه : يارسول الله أخبرنا عن نفسك . فقال : **أنا دعوة أبى إبراهيم ـــ يعنى قوله :**[1]

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

---

(1) البقرة ١٢٦ .

وبشّر بى عيسى ، ورأت أمى حين حملتْ بى أنه خرجَ منها نور أضاءَ لها قصورَ بُصرى من أرضِ الشام . واسترضعتُ فى بنى سعد ابن بكر ، فبينَا أنا مع أخ لى خلْفَ بيوتِنا نرْعَى بَهْماً لنا ، إذ جاءلى رجلان عليهما ثياب بيض بطسْتٍ من ذهب مملوء ثلجا ، فأخذانى ، فشقا بطنى ، ثم استخرجا منه قلبى ، فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ... »





قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ﴾ (٤)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ (٥)

---

(١) المائدة من الآية ٧٠ .
(٢) الطور من الآية ٤٨ .
(٣) الزمر من الآية ٣٦ .
(٤) الحجر ٩٥ .
(٥) الأنفال : ٣٠

وروى أن النبى — ﷺ — كان إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها ، فأتاه أعرابى فاخترط[1] سيفه ، ثم قال : من يمنعك منى ؟ فقال « **الله عز وجل** » ، فأرعدت يد الأعرابى ، وسقط سيفه ، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه فنزلت الآية[2]

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾

وقيل بل عفا عنه فرجع إلى قومه ، وقال جئتكم من عند خير الناس .

وقيل أن غورث بن الحارث المحاربى أراد أن يفتك بالنبى — ﷺ — فلم يشعر به (النبى) إلا وهو قائم على رأسه منتضيا[3] فقال : « **اللهم اكفنيه بما شئت** » فانكب من وجهه ، وندر[4] سيفه من يده . وذكر أنّ فيه نزلت : [5]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ ﴾

---

(١) سلّ .
(٢) المائدة : ٦٧ .
(٣) انتضى سيفه : سله
(٤) ندر : سقط .
(٥) المائدة : ١١ .

ويقال أن حمالة الحطب[1] كانت تضع العضاة[2] وهى جمر[3] — على طريق رسول الله — ﷺ — . فكأنما يطؤها كثيبا أهيل[4] .

وذكر ابن إسحق عنها أنها لما بلغها نزول قوله تعالى: [5]

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾

وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم ، أتت رسول الله — ﷺ — وهو جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، وفى يدها فِهْر[6] من حجارة ، فلما وقفت عليهما لم تر إلّا أبا بكر ، وأخذ الله تعالى ببصرها على نبيه — ﷺ — فقالت : يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه .

وعن عمر رضى الله عنه — تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلةً قَفَلَ رسول الله — ﷺ — فجئنا منزلة ، فسمعنا له ، فافتتح وقرأ

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ ﴾[7]

إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾[8]

---

(١) أم جميل : زوج أبى لهب .

(٢) شجر الشوك .

(٣) أى وهذا الشوك كان حادا مؤلما كأنه الجمر .

(٤) أى كان — عليه السلام — يمشى عليها وكأنها كثيب من الرمل فقد تماسكه .

(٥) المسد : ١ .

(٦) الفهر : حجر ملء الكف .

(٧) الحاقة : ١ .

(٨) الحاقة : ٨

فضرب أبو جهم على عضد عمر ، وقال : انجُ . وفرا هاربين فكانت من مقدمات إسلام عمر — رضى الله عنه — .

ومنه العبرة المشهورة ، والكفاية التامة ، عندما أخافته قريش ، وأجمعت على قتله ، وبيتوه ، فخرج عليهم من بيته ، فقام على رءوسهم وقد ضرب الله — تعالى — على أبصارهم ، وذرّ التراب على رءوسهم ، وخلص منهم ، وحمايته عن رؤيتهم فى الغار ، بما هيأ الله له من الآيات ، ومن العنكبوت الذى نسج عليه ، ووقفت حمامتان على فم الغار ، فقالت قريش : لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام .

وقصته من سراقة بن مالك حين الهجرة ، وقد جعلت قريش فيه وفى أبى بكر الجعائل[1] ، فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبى — ﷺ ، فساخت[2] قوائم فرسه فخرَّ عنها ، واستقسم بالأزلام ، فخرج له ما يكره ، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبى — ﷺ — وهو لا يلتفت وأبو بكر يلتفت ، وقال للنبى — ﷺ : أُتينا[3] . فقال : [4]

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾

فساخت الفرس

ثانية إلى ركبتيها ، وخرّ عنها فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان ، فناداهم بالأمان ، فكتب له النبى — ﷺ — أمانا .

---

(١) جمع جعاله وهى الأجر مقابل عمل .
(٢) ساخت : غاصت فى الرمل .
(٣) هوجمنا وأحيط بنا .
(٤) التوبة ٤٠ .

وفى خبر آخر أن راعيا عرف خبرهما فخرج يشتد يعلم قريشا[١]، فلما ورد مكة ضرب على قلبه ، فما يدرى ما يصنع ، وأنسى ما خرج له ، حتى رجع الى موضعه .

وجاءه أبو جهل بصخرة وهو ساجد ، وقريش ينظرون ليطرحها عليه ، فلزقت بيده ، ويبست يداه إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه ، ثم سأله أن يدعو له ففعل فانطلقت يداه .

وكان قد تواعد مع قريش بذلك وحلف لئن رآه ليدفعنّه[٢] ، فلما حدث له ما حدث ، سألوه عن شأنه فذكر أنه عرض لى فحل ما رأيت مثله قط همّ بى أن يأكلنى ، فقال النبى — ﷺ — ذاك جبريل لو دنا لأخذه .

ومن ذلك ما حدث يوم خرج عليه السلام إلى بنى قريظة فى أصحابه ، فجلس إلى جدار بعض آطامهم[٣] ، فانبعث عمرو بن جحاش أحد اليهود ليطرح عليه رحى ، فقام النبى — ﷺ — فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم .

وعن أبى هريرة أن أبا جهل وعد قريشا لأن رأى محمدا يصلى ليطأن رقبته ، فلما صلى النبى — ﷺ — أعلموه فأقبل ، فلما قرب منه ولىّ هاربا ناكصا على عقبيه متقيا بيديه . فسئل فقال : لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارا كدت أهوى فيه ، وأبصرت هولا عظيما ، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض . فقال ﷺ : « تلك

---

(١) أى : يسرع السير بهمة حتى ينال الجعالة .
(٢) أى : ليقضين عليه بدفع الحجر عليه .
(٣) آطام : جمع أُطم وهو الحصن .

الملائكة ، لو دنا لاختطفته عضوا عضوا » ثم أنزل على النبى ﷺ[1]

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾

إلى آخر السورة .

ويروى أن شيبة بن عثمان الحجّى أدركه يوم حنين — وكان حمزة قد قتل أباه وعمه — فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، فلما اختلط الناس أتاه من خلفه ، ورفع سيفه ليصبه عليه . قال : فلما دنوت منه ارتفع إلىّ شُواظ[2] من نار أسرع من البرق ، فوليت هاربا ، وأحسَّ بى النبى — ﷺ — فدعانى فوضع يده على صدرى ، وهو أبغض الخلق إلىّ ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلىّ ، وقال : « **اذن فقاتل** » فتقدمت أمامه أضرب بسيفى وأقيه بنفسى ، ولو لقيت أبى تلك الساعة لاوقعت به دونه .

وعن فضاله بن عمرو قال : أردت قتل النبى — ﷺ — عام الفتح ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه قال : **أفضالة ؟** قلت : نعم . قال : **ما كنت تحدث به نفسك ؟ قلت** : لاشىء . فضحك واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى فسكن قلبى ، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه .

---

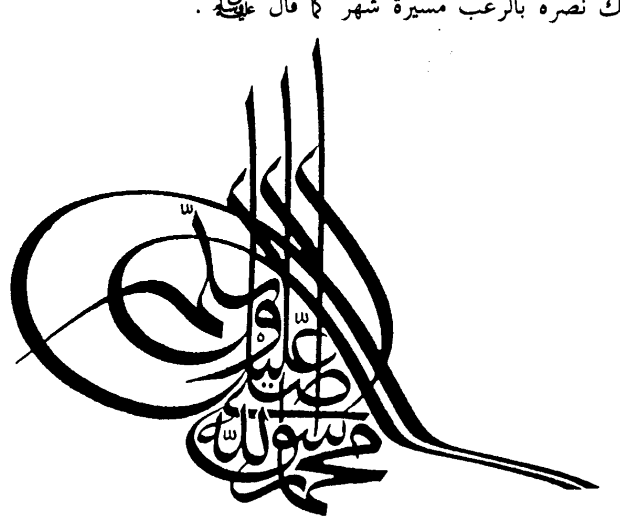
(١) العلق ٧ .

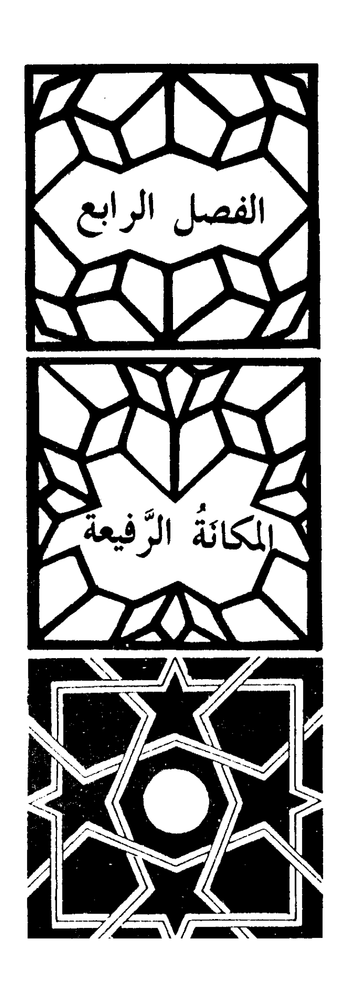
(٢) لهب .

ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس حين وفدا على النبى — ﷺ — وكان عامر قال له : « أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت » فلم يره فعل شيئا . فلما كلمه فى ذلك قال له : « والله ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بينى وبينه ، أفأضربك ؟

ومن عصمته له تعالى أن كثيرا من اليهود والكهنة أنذروا به لقريش ، وأخبروهم بسطوته بهم ، وحضورهم على قتله ، فعصمه الله تعالى حتى بلغ فيه أمره .

ومن ذلك نصره بالرعب مسيرة شهر كما قال ﷺ .





الفصل الرابع
المكانةُ الرَّفيعة

نبيّ ورسول ؟

اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة فى قلوب عباده ، والعلم بذاته وأسمائه وصفاته ، وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة لو شاء ، كما حكى عن سنته فى بعض الأنبياء ، وذكره بعض أهل التفسير فى قوله : [1]

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ .

وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه ، وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر ، كالملائكة مع الأنبياء ، أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم ، ولا مانع لهذا من دليل العقل .

وإذا جاز هذا ولم يستحل ، وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم ، وجب تصديقهم فى جميع ما أتوْا به ، لأن المعجزة مع التحدى من النبى — ﷺ — قائم مقام قول الله « **صَدَق عبْدى فأطيعُوه واتَّبعُوه** » ، وشاهد على صدقه فيما يقوله ، وهذا كاف ، والتطويل فيه خارج عن الغرض .

والنبوة : فى لغة من همَزَ مأخوذة من النبأ وهو الخبر ، وقد لا يهمز على هذا التأويل تسهيلا ، والمعنى : أن الله تعالى أطلعه على غيبه ، وأعلمه أنه نبيه ، فيكون نبيٌّ .

---

(١) الشورى : ٥١ .

« منبأ » **فعيل بمعنى مفعول** ، أو يكون مُخْبراً عما بعثه الله تعالى به ، ومنبئا أطلعه الله عليه : **فعيل بمعنى فاعل** .

ويكون عند من لم يهمزه من النبوة ، وهو ما ارتفع من الأرض ، ومعناه أن له رتبه شريفة ، ومكانة نبيهة عند مولاه منيفة[1] . فالوصفان فى حقه مؤتلفان .

وأما الرسول فهو المرْسَل ، ولم يأت فعول بمعنى مُفْعَل فى اللغة إلا نادرا ، وإرساله أمرُ الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه ، واشتقاقه من التتابع ، ومنه قولهم : جاء الناس أرسالا ، إذا تبع بعضهم بعضا ، **فكأنه أُلزِم تكرير التبليغ ، أو أُلزِمت الأمةُ اتباعه**

واختلف العلماء : هل النبى والرسول بمعنى أو بمعنيين :

١ ـــ فقيل هما سواء وأصله من الإنباء وهو الإعلام ، واستدلوا بقوله* تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [2]

فقد أثبت لهما معا الإرسال ، قال : ولا يكون النبى إلا رسولا ، ولا الرسول إلا نبيا .

٢ ـــ وقيل : هما مفترقان من وجه : إذ اجتمعا فى النبوة التى هى الاطلاع على الغيب ، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة **ذلك وحوز درجتها ، وافترقا فى زيادة الرسالة للرسول ، وهو**

---

(١) منيفة : عالية .

(٢) الحج : ٥٢ .

الأمر بالإنذار والإعلام ، وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين ، ولو كانا شيئا واحدا لما حسُن تكرارهما فى الكلام البليغ .

قالوا والمعنى : وما أرسلنا من رسول إلى أمة ، أو نبى وليس بمرسل إلى أحد .

٣ — وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول قد جاء بشرع مبتدأ ، ومن لم يأت به نبى غير رسول ، وإن أمر بالإبلاغ والإنذار .

والصحيح والذى عليه الجمّاء الغفير[1] : **أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا ، وأول الرسل آدم ، وآخرهم محمد — ﷺ —.**

***

وأما الوحى : فأصله الإسراع ، فلما كان النبى يتلقى ما يأتيه من ربه بِعَجَلٍ سمى وحيا ، وسميت أنواع الإلهامات وحيا تشبيها بالوحى إلى النبى ، وسمى الخط وحيا لسرعة حركة يد كاتبه . ووَحْىُ الحاجب واللحظ : سرعة إشارتهما : ومنه قوله تعالى :

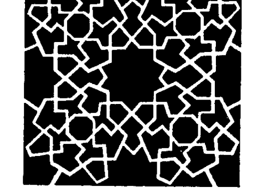
﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾[2]

أى أومأ ورمز ، وقيل كتب ، ومنه قولهم الوَحَا الوَحَا أى : السرعة السرعة .

---

(١) الجماء الغفير : أى الكثرة الكثيرة .

(٢) مريم : ١١ .



وقيل أصل الوحى السرّ والإخفاء ، ومنه سمى الإلهام وحيا . ومنه قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾[1]

ومنه قوله :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾[2]

أى ألقى فى قلبها . وقد قيل ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾[3]

أى ما يلقيه فى قلبه دون واسطه .

---

(١) الأنعام من الآية : ١٢١ .
(٢) القصص : ٧ .
(٣) الشورى : ٥١ .

بين يدى القرآن :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾(١)

أعلم الله الناس أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه ، ويتحققون مكانه ، ويعلمون صدقه وأمانته ، فلا يتهمونه بالكذب ، وترك النصحية لهم لكونه منهم ، وأنه لم تكن قبيلة فى العرب إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة .

والنبى من أشرفهم وأرفعهم ، وأفضلهم على قراءة الفتح ، وهذه نهاية المدح .

ثم وصفه تعالى بحرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم ، وشدة ما يعنتهم(٢) ، ويضرّ بهم فى دنياهم وأخراهم ، وعزته(٣) عليه ، ورأفته ورحمته بمؤمنهم .

قال بعضهم : أعطاه اسمين من أسمائه : رءوف رحيم . وقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٤)

---

(١) التوبة ١٢٨ ، وقرأ بعضهم من أنفسكم (بفتح الفاء) وقراءة الجمهور بالضم .
(٢) يشق عليهم .
(٣) مشقته .
(٤) الأنبياء : ١٠٧ .

وقد سماه الله تعالى في القرآن — في غير هذا الموضع — نورا وسراجا منيرا ، فقال تعالى : [1]

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وقال تعالى : [2]

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

ومن هذا قوله تعالى : [3]

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

إلى آخر السورة ، وشرح وسع ، والمراد بالصدر هنا القلب . ومن الأقوال الواردة في ذلك للسلف الصالح :

— شرحه بنور الإسلام .
— ملأه حكما وعلما .
— ألم يطهر قلبك حتى لا يقبل الوسواس :

(١) المائدة : ١٥ .
(٢) الأحزاب : ٤٦ .
(٣) الانشراح : ١ .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ ﴾[1]

ـــ ما سلف من ذنبك ـــ يعنى قبل النبوة .
ـــ أراد ثقل أيام الجاهلية .
ـــ أراد ما أثقل ظهره من الرسالة حتى بلغها .
ـــ عصمناك ، ولولا ذلك لأثقلت الذنوب ظهرك .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾[2]

ـــ قيل « بالنبوه »
ـــ وقيل : إذا ذكرتُ ذكرتَ معى فى قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
ـــ وقيل : فى الأذان .

★★★

ويقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾[3]

---

(١) الانشراح : ٣ .
(٢) الأنشراح : ٤ .
(٣) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .

جمع الله ـــ سبحانه وتعالى للنبى ـــ عليه السلام ـــ فى هاتين الآيتين ضروبا من رتب الأُثْرة[1] :

ـــ فجعله **شاهدا** على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة ، وهى من خصائصه ـــ ﷺ ـــ.

ـــ **ومبشرا** لأهل طاعته .

ـــ **ونذيرا** لأهل معصيته .

ـــ **وداعيا** إلى توحيده وعبادته .

ـــ **وسراجا منيرا** يهتدى به للحق .

★★★

ومما جاء من خطاب الله إياه ، وورد مورد الملاطفة والمبرة قوله تعالى : [2]

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾

وفى تفسير ذلك جاء عن السلف :

ـــ هذا افتتاح كلام بمنزلة أصلحك الله ، وأعزك الله .

ـــ أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب .

ـــ المعنى : عافاك الله يا سليم القلب ، لم أذنت لهم ؟

ولو بدأ القولُ : لم أذنت لهم لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام ؛ لكن الله سبحانه وتعالى أخبره بالعفو حتى سكن قلبه .

(١) الأثرة (بضم فسكون) : الكرامة .

(٢) التوبة : ٤٣ .

ثم قال « لم أذنت لهم ؟ » بالتخلف حتى يتبين لك الصادق فى عذره من الكاذب .

وفى هذا من عظيم منزلته عند الله مالا يخفى على ذى لب ، ومن إكرامه إياه ، وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب .

وقال تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

اتفق أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ـــ ﷺ ـــ.

ومعناه : وبقائك يا محمد .

وقيل : وعيشك .

وقيل : وحياتك .

وهذه نهاية التعظيم ، وغاية البر والتشريف .

قال ابن عباس « ما خلق الله ، وما ذرأ ، وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ـــ ﷺ ـــ وما سمعت الله تعالى ـــ أقسم بحياة أحد غيره .

★★★

(١) الحجر : ٧٢

وقال تعالى : (١)

﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ ﴾

الآيات ومن أقوال المفسرين فى ذلك .

ـــ روى عن النبى(٢) ﷺ أنه قال « لى عند ربى عشرة أسماء » ذكر منها أن « طه » و « يس » اسمان له ـــ .

ـــ وقيل : أنه أراد : يا سيد « مخاطبة لنبيه ـــ ﷺ ـــ .

ـــ وقيل « يٓس » يا إنسان ـــ أراد محمداً ـــ ﷺ .

ـــ وقيل : هو قسم ، وهو من أسماء الله تعالى .

ـــ وقيل معناه : يا محمد .

ـــ وقيل يا رجل .

ـــ وقيل : يا إنسان .

ثم قال تعالى : (٣)

﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾

---

(١) يس : ١ ، ٢ .

(٢) أخرجه أبو نعيم ، وابن مردويه من طريق أبى يحيى التميمى ، وهو وضّاع ، عن سيف بن وهب وهو ضعيف عن ابى الطفيل . ا هـ شفاج ١ صـ٨٧ .

(٣) يس : ٢ ، ٣ .

— فإذا قدر أن « يس » من أسمائه — ﷺ — وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، ويؤكد فيه القَسَمَ عطف القسم الآخر عليه .

— وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته ، والشهادة بهدايته ، أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ، أى طريق لا اعوجاج فيه ، ولا عدول عن الحق .

قال بعضهم : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا له .

وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال « إنه يا سيد » ما فيه . وقد قال — ﷺ — « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

***

قال تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ (١)

— قيل : كان ترك النبى — ﷺ — قيام الليل لعذر نزل به فتكلمت امرأة فى ذلك بكلام .

— وقيل : بل تكلم به المشركون عند فترة الوحى ، فنزلت السورة .

وقد تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له ، وتنويهه به ، وتعظيمه إياه ستة وجوه :

(١) الضحى : ١ ، ٢ .

الأول : القسم له عما أخبره من حاله بقوله تعالى :[1]

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾

أى ورب الضحى ، وهذا من أعظم درجات المبرة .

الثانى : بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى :[2]

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾

أى ما تركك وما أبغضك وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك .

الثالث : قوله تعالى :[3]

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ ﴾

قيل : أى مآلك فى مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا

وقيل : أى ما أدخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك فى الدنيا .

الرابع : قوله تعالى :[4]

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾

---

(١) الضحى : ١،٢
(٢) الضحى : ٣
(٣) لضحى : ٤
(٤) الضحى : ٥

وهذه

آية جامعة لوجوه الكرامة ، وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين والزيادة .

وقيل : يرضيه بالفلج[1] فى الدنيا والثواب فى الآخرة وقيل : يعطيه الحوض والشفاعه

الخامس : ما عدَّ تعالى عليه من نعمه ، وقرره من آلائه قبله فى بقية السورة من هدايته إلى ما هداه له ، أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير ، ولا مال له ، فأغناه بما اتاه ، أو بما جعله فى قلبه من القناعة والغنى ، ويتيماً فحدب عليه عمه وآواه إليه .

وقيل : آواه إلى الله

وقيل : « يتيما » لا مثال لك فآواك إليه .

وقيل : المعنى : ألم يجدك فهدى بك ضالا ، وأغنى بك عائلا ، وآوى بك يتيماً ، ذكّره بهذه المنن ، وأنه على المعلوم من التفاسير لم يهمله فى حال صغره ، وعيلته ، ويتمه ، وقبل معرفته به ، ولا ودعه ، ولا قلاه ، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه .

السادس : أمره بإظهار نعمته عليه ، وشكر ما شرفه به بنشره ، وإشادة ذكره بقوله تعالى : [2]

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

فإن من شكر النعمة التحدث بها . وهذا خاص له وعام لامته .

(١) الفَلْج : الظفر والفوز .

(٢) الضحى : ١١

أما آيات سورة النجم فقد اشتملت على إعلام الله تعالى بتزكية جملته ـــ ﷺ ـــ وعصمتها من الآفات فى مسراه .

فزكى فؤاده ولسانه وجوارحه :

ـــ زكّى فؤاده بقوله تعالى : (1)

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

ـــ وزكّى لسانه بقوله : (2)

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾

ـــ وزكى بصره بقوله : (3)

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

★★★

وقال تعالى : (4)

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾

.. الآيات أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه ، من تنزيه المصطفى مما غمصته(5) الكفرة به ، وتكذيبهم له ، وآنسه وبسط أمله بقوله محسنا خطابه :

(1) النجم : 11

(2) النجم : 3 .

(3) النجم : 17 .

(4) القلم : 1 .

(5) عابته .

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾[1]

وهذه نهاية المبرة فى المخاطبة ، وأعلى درجات الآداب فى المحاورة .

ثم أعلمه بماله عنده من نعيم دائم ، وثواب غير منقطع لا يأخذه عدّ ، ولا يَمُنّ به عليه . فقال

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾[2]

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته ، وهداه إليه ، وأكّد ذلك تتميما للتمجيد بحرفى التأكيد ، فقال تعالى

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3]

***

وقال تعالى

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [4]

— قيل « طه » اسم من أسمائه — ﷺ —.

— وقيل : هو اسم الله .

— وقيل معناه : يارجل .

— **وقيل : يا إنسان .**

---

(١) القلم : ٢ .

(٢) القلم : ٣ .

(٣) القلم : ٤ .

(٤) طه : ١ — ٢ .

ـــ وقيل : هى حروف مقطعة لمعان .

ـــ وقيل : أراد سبحانه ـــ « يا طاهر ، يا هادى »[1]

ـــ وقيل : هو أمر من الوطء ، والهاء كناية عن الأرض . أى اعتمد على الأرض بقدميك ، ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم واحدة . وهو قوله تعالى :[2]

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾

وقد نزلت الآية فيما كان يتكلفه النبى ـــ ﷺ ـــ من السهر والتعب وقيام الليل .

وقد روى أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان إذا قام صلى على رجل ، ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى « **طه** » يعنى طإ الأرض يا محمد « **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** » ، ولا خفاء بما فى هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة .

***

وقال تعالى :[3] ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١ ﴾

(١) واضح أن هذا التفسير يجعل كل حرف فى طه أول حرف فى الوصف .

(٢) طه : ١، ٢ .

(٣) آل عمران : ٨١ .

قال المفسرون : أخذ الله الميثاق بالوحي ، فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمدا ونَعْته ، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به .

وقيل : أن يبينه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم .

وقوله « **ثم جاءكم** » الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد — ﷺ —.

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — للنبى — ﷺ —: بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ (1)

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده ، أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك ، وهم بين أطباقها يعذبون ، يقولون :

﴿ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ (2)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (3)

أى ما كنت بمكة ، فلما خرج النبى — ﷺ — من مكة ، وبقى فيها من بقى من المؤمنين نزل قوله تعالى :

---

(1) الأحزاب من الآية : ٧ .

(2) الأحزاب : ٦٦ .

(3) الأنفال : ٣٣ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١)

فلما هاجر المؤمنون نزلت :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

وهذا من أبين ما يظهر مكانته ودرأته(٣) العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم ، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم ، وغلبتهم إياهم ، وحكم فيهم سيوفهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم .

وفى الآية أيضا تأويل آخر :

عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله — ﷺ — : « أنزل الله علىّ أمانين لأمتى :(٤)

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار .

***

(١) الأنفال : ٣٣ .

(٢) الأنفال : ٣٤

(٣) الدره : الدفع .

(٤) الأنفال : ٣٣ .

ونحو منه قوله تعالى

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١)

قال رسول

الله ـ ﷺ ـ « أنا أمان لأصحابى » قيل : من البدع .

وقيل : من الاختلاف والفتن .

قال بعضهم : الرسول ـ ﷺ ـ هو الأمان الأعظم ما عاش ، وما دامت سنته باقية فهو باق ، فإذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والفتن .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢)

أبان الله تعالى فضل نبيه ـ ﷺ ـ بصلاته عليه ، ثم بصلاة ملائكته ، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه ، وأوّل بعض العلماء قوله ـ ﷺ ـ « **وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » . على هذا أى فى صلاة الله تعالى على ، وملائكته ، وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة .

والصلاة من الملائكة ومنا له دعاء ، ومن الله عز وجل رحمة .

***

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ .... يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ (٣)

(١) الأنبياء : ١٠٦ .

(٢) الأحزاب : ٥٦ .

(٣) الفتح : (١ ـ ١٠) .

تضمنت هذه الآيات من فضله ، والثناء عليه ، وكريم منزلته عند الله تعالى ، ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه . فابتدأ جل جلاله بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره وغلبته على عدوه ، وعلو كلمته وشريعته ، وأنه مغفور له ، غير مؤاخذ بما كان وما يكون .

ثم قال تعالى :

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ (1)

قيل : بخضوع من تكبرلك .

وقيل : بفتح مكة والطائف .

وقيل : يرفع ذكرك فى الدنيا ، وينصرك ، ويغفر لك . فأعلمه بتمام نعمته عليه . بخضوع متكبرى عدوه له ، وفتح أهم البلاد عليه ، وأحبها له ، ورفع ذكره ، وهدايته الصراط المستقيم الذى يبلغه الجنة والسعادة ونصره النصر العزيز ، ومنته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التى جعلها فى قلوبهم ، وبشارتهم بمالهم عند ربهم بعدُ ، وفوزهم العظيم ، والعفو عنهم ، والستر لذنوبهم ، وهلاك عدوه فى الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم جمع للنبى – ﷺ – فى سورة الفتح نعم مختلفة .

– من الفتح المبين : وهو من أعلام(2) الإجابة .

– والمغفرة : وهى من أعلام المحبة .

– وتمام النعمة : وهى من أعلام الاختصاص .

– والهداية : وهى من أعلام الولاية .

(1) الفتح : 2 .

(2) أعلام : علامات .

فالمغفرة تبرئة من العيوب .

وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة والهداية : وهى الدعوة إلى المشاهدة .

وقال بعضهم : من تمام نعمة الله عليه أن جعله حبيبه ، وأقسم بحياته ، ونسخ به شرائع غيره ، وعرج به إلى المحل الأعلى ، وحفظه فى المعراج حتى مازاغ البصر وما طغى ، وبعثه إلى الأحمر والأسود ، وأحل له ولأمته الغنائم ، وجعله شفيعا مشفعا وسيدا ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ورضاه برضاه ، وجعله أحد ركنى التوحيد .

***

ومن مظاهر كرامته على الله ومكانته عنده :

ــ ما قصه الله سبحانه وتعالى عنه فى سورتى « الإسراء » والنجم ».

ــ عصمته من الناس بقوله تعالى:[1]

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾

وقوله تعالى : [2] ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) الأنفال : ٣٠ .

وقوله تعالى : [1]

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾

ـــ وما دفعه الله عنه من أذى الكفار ، والأخذ على أبصارهم عند خروجهم عليه ، وذهولهم عن طلبه فى الغار ، وما ظهر فى ذلك من الآيات ، ونزول السكينة عليه ، وقصة سراقة بن مالك ، كما هو معروف فى قصة الهجرة .

ـــ وقوله تعالى : [2]

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

فقد أعلمه الله بما أعطاه . والكوثر حوضه ، أو نهر فى الجنة ، أو الخير الكثير ، أو الشفاعة ، أو المعجزات الكثيرة ، أو النبوة ، أو المعرفة .

ثم أجاب عنه عدوه ، ورد عليه قوله . فقال تعالى : [3]

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

أى عدوك ومبغضك . والأبتر : الحقير الذليل ، أو المفرد الوحيد الذى لا خير فيه .

---

(١) التوبة : ٤٠ .
(٢) الكوثر : ١ ـــ ٣ .
(٣) الكوثر : ٣ .


الفصل الخامس
حقيقة الإسراء

اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه — ﷺ — بروحه أو جسده !؟ : على ثلاث مقالات :

— فذهبت طائفة : إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى .

واستندوا فى ذلك إلى الحجج الآتية :

١ — قوله تعالى : (١)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾

٢ — ما حكوا عن عائشة — رضى الله عنها — ما فقدت جسد رسول الله — ﷺ —.

٣ — قوله — ﷺ — « **بينا أنا نائم** » .

٤ — قول أنس — رضى الله عنه — « وهو — أى النبى — نائم فى المسجد الحرام . (وذكر قصة الإسراء) ثم قال فى آخرها : **فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام** »

— وذهب معظم السلف والمسلمين : إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة .

وهذا هو الحق ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

---

(١) الإسراء : ٦٠ .

ـ وقالت طائفة ثالثة : كان الإسراء بالجسد يقظة من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح .

واحتجوا بقوله تعالى : ·

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [1]

فجعل « **إلى المسجد الأقصى** » غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبى محمد ـ ﷺ ـ به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .

وقال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ فى المدح .

***

والحق من هذا والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها ، وعليه تدور الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار .

ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة .

ولو كان مناما لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى:

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [2]

(١) الإسراء : ١ .
(٢) النجم : ١٦ .

ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذبوا فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم ، وافتتنوا به ، إذْ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته .

إلى ما ذكر فى الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس فى رواية أنس ، أو فى السماء — على ما روى غيره ، وذكر مجىء جبريل له بالبراق ، وخبر المعراج ، واستفتاح السماء ..

قال ابن عباس « هى رؤيا عين رآها — ﷺ — لا رؤيا منام » .

وعن الحسن فيه « **بينا أنا نائم فى الحِجْر جاءنى جبريل ، فهمزنى بعقبة ، فقمت فجلست ، فلم أر شيئا فعدت لمضجعى** — ذكر ذلك ثلاثا — فقال فى الثالثة « **فأخذ بعضُدى إلى باب المسجد ، فإذا بدابة** .. وذكر البراق .

وعن أم هانىء : ما أسرى برسول الله — ﷺ — إلا وهو فى بيتى تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ، ونام بيننا ، فلما كان قبيل الفجر أهَبَّنَا[1] رسول الله — ﷺ — فلما صلى الصبح وصلينا . قال « **يا أم هانىء .. لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى . ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون ..** »

وهذا بيِّن فى أنه بجسده .

---

(١) أهبّنا : أيقظنا .

وعن أبي بكر — رضى الله عنه — قال للنبي — ﷺ — ليلة أسرى به .

« **طلبتك** يا رسول الله البارحة فى مكانك فلم أجدك » .

فأجابه « **إن جبريل عليه السلام حملنى إلى المسجد الأقصى** » .

وعن عمر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « **صليت ليلة أسرى بى فى مقدم المسجد ، ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاث** .. » وذكر الحديث .

وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة فتحمل على ظاهرها .

★★★

إبطال حجج من قال إن الإسراء كان مناما :

١ — احتجوا بقوله تعالى**:**

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (١)

ونرد على ذلك بما يأتى :

(أ) قوله **:**

﴿ **سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا** ﴾ (٢)

---

(١) الإسراء : ٥٩ .

(٢) الإسراء : ١ .

يرد هذا الزعم : لأنه لا يقال فى النوم « **أسرى** » .

(ب) وقوله : « **فتنة للناس** » يؤيد أنها رؤيا عين ، وإسراء بشخص ، إذ ليس فى الحُلْم فتنة ، ولا يكذِّب به أحد ، لأن كل أحد يرى مثل ذلك فى منامه من الكون فى ساعة واحدة فى أقطار متباينة .

(جـ) على أن المفسرين قد اختلفوا فى هذه الآية :

— فذهب بعضهم إلى أنها نزلت فى قضية الحديبية ، وما وقع فى نفوس الناس من ذلك .

— وقيل غير هذا .

٢ — وأما قولهم : إنه قد سماها فى الحديث **مناما** ، وقوله فى حديث آخر « **بين النائم واليقظان** » وقوله أيضا « **وهو نائم** » وقوله : « **ثم استيقظت** » فكل ذلك لا حجة فيه :

(أ) إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم ، أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس فى الحديث أنه كان نائما فى القصة كلها إلا ما يدل عليه قوله : **ثم استيقظت وأنا فى المسجد الحرام** فلعل قوله : « **استيقظت** » بمعنى أصبحت ، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته ، ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله وإنما كان فى بعضه ،

(ب) وقد يكون قوله « **استيقظت وأنا فى المسجد الحرام** » لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السماوات والأرض وخامر باطنه من مشاهد الملأ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه

الكبرى ، فلم يستفق ، ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام .

(جـ) ووجه ثالث : أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه ، ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر ، ورؤيا الأنبياء حق ، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله تعالى .. ولا يصح هذا أن يكون فى وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت فى هذا الإسراء حالات .

(د) ووجه رابع : وهو أن يعبِّر بالنوم ها هنا عن هيئة النائم من الاضطجاع ، ويقويهٔ قوله فى رواية عبد الله بن حميد عن همام : « **بينا أنا نائم** » — وربما قال — « **مضجع** » وقوله فى الرواية الأخرى « **بين النائـم واليقطان** » فيكون سمى هيئته بالنوم لِما كانت هيئته النائـم غالبا .

(هـ) وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم ، وذكر شقّ البطن ، ودنو الربّ عز وجل الواقعة فى هذا الحديث ، إنما هى من رواية شريك عن أنس ، فهى منكرة[1] من روايته . اذ شق البطن فى الأحاديث الصحيحة إنما كان فى صغره — ﷺ — ولأنه قال فى الحديث « **قبل أن يبعث** » والإسراء بالإجماع كان بعد المبعث . فهذا كله يوهن ما وقع فى رواية أنس ، مع أن أنساً قد بين من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره ، وأنه لم يسمعه من النبى ﷺ : فقال مرة

(١) منكرة : شاذة . وشريك بن أبى نمر الراوية طعن فيه بعضهم وقالوا إنه غير ثبْت .

« عن مالك بن صعصعة » . وفى كتاب مسلم « لعله عن مالك بن صعصعة » على الشك . وقال مرة « كان أبو ذر يحدث » .

٣ — **وأما قول عائشة « ما فقدت جسده »** فعائشة لم تحدث به عن
مشاهدة ، لأنها لم تكن حينئذ زوج النبى — ﷺ — ولا فى سن من يضبط ، ولعلها لم تكن ولدت بعد ، على الخلاف فى الإسراء متى كان :

— وقد قيل : كان الإسراء لخمس قبل الهجرة .

— وقيل قبل الهجرة بعام .

والحجة لذلك تَطُولُ ليست من غرضنا ، فإذا لم تشاهد ذلك عائشة دلّ على أنها حدثت بذلك عن غيرها ، فلم يرجَّح خبرها على خبر غيرها .

وغيرها يقول خلافه مما وقع نصا فى حديث أم هانىء وغيره ، وأيضا فليس حديث عائشة — رضى الله عنها — بالثابت ، والأحاديث الأخر أثبت ، لسنا نعنى حديث أم هانىء ، وما ذُكِرَتْ فيه خديجة .

وأيضا فقد روى فى حديث عائشة « **ما فقدت** » ولم يدخل بها النبى — ﷺ — إلا بالمدينة ، وكل هذا يوهنه .

بل والذى يدل عليه صحيح قولها أنه بجسده **لإنكارها أن تكون رؤياه لربه رؤيا عين** ، ولو كانت عندها مناما لم تنكره .

٤ ــ **فإن قيل : فقد قال تعالى**

﴿ ما كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ ﴾[1]

فقد جعل «ما رآه» للقلب ، وهذا يدل على أنه رؤيا نوم ووحى ، لا مشاهدة عين وحس .

قلنا : يقابله قوله تعالى

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ ﴾[2]

فقد أضاف الأمر للبصر .

وقد قال أهل التفسير فى قوله تعالى « **ما كذب الفؤاد ما رأى** » أى لم يوهِمْ القلبُ العينَ غير الحقيقة ، بل صدق رؤيتها .

وقيل : ما أنكر قلبه ما رأته عيناه .

***

رؤيته لربه :

أما رؤيته لربه جل وعز ، فاختلف السلف فيها :

١ ــ **فأنكرته عائشة ــ** رضى الله عنها ــ: عن مسروق أنه قال : قلت لعائشة ــ رضى الله عنها ــ يا أم المؤمنين : هل رأى محمد ربه ؟

---

(١) النجم : ١١ .
(٢) النجم : ١٧ .

فقالت : لقد قَفَّ شعرى[1] مما قُلْتُ ، ثلاث من حدثك بهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا رأى ربّه فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2]

وعلى هذا الرأى كثير من السلف .

٢ — **وروى عن ابن عباس** — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — رآه بعينه . كما روى عنه قولان آخران وهما : أنه رآه بقلبه ، وأنه رآه بفؤاده مرتين .

ولكن الأول هو الأشهر عنه . وقال : إن الله تعالى اختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلّة[3] ، ومحمدا بالرؤية . وحجته قوله ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[4]

وحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال « أنا أقول بحديث ابن عباس « بعينيه رآه رآه .. » .

وعن ابن عطاء فى قوله تعالى:[5] ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

قال : شرح صدره للرؤية ، وشرح صدر موسى للكلام .

---

(١) قفّ شعرى : كناية عن شدة فزعها مما قال .
(٢) الأنعام : ١٠٣ .
(٣) والخليل هو الصادق وهو من أصفى المودة والحب .
(٤) النجم : ١١ — ١٣ .
(٥) الانشراح : ١ .

والحق الذى لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا ، وليس فى العقل ما يحيلها :

والدليل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى — عليه السلام — لها ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله ، ومالا يجوز عليه ، بل لم يسأل إلا جائز غير مستحيل .

ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لا يعلمه إلا من علّمه الله .

فقال له تعالى: (١)

﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾

أى لن تطيق ، ولا تحتمل رؤيتى ، ثم
ضرب له مثلا مما هو أقوى من نبيه موسى وأثبت وهو الجبل .

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته فى الدنيا بل فيه جوازها على الجملة .

وليس من الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها ، إذ كل موجود فرؤيته جائزه غير مستحيلة .

ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى : (٢)

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(١) الأعراف من الآية : ١٤٣ .
(٢) الأنعام : ١٠٣ .

لاختلاف التأويلات فى الآية ، وإذْ ليس يقتضى قول من قال فى الدنيا الاستحالة . وقد استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية ، وعدم استحالتها على الجملة .

– وقد قيل : لا تدركه أبصار الكفار .

– وقيل : لا تدركه الأبصار : لا تحيط به .

– وقيل : لا تدركه الأبصار ، وإنما يدركه المبصرون .

وكل هذه التأويلات لا تقتضى منع الرؤية ولا استحالتها .

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى : .[1]

﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾

وقوله [2]

﴿ تبتُ إِلَيْكَ ﴾

لما قدمناه ، ولأنها ليست على العموم ، ولأن من قال : معناها لن ترانى فى الدنيا ، إنما هو تأويل .

وأيضا فليس فيه نص الامتناع .

وإنما جاءت فى حق موسى .

وحيث تتطرق التأويلات ، وتتسلط الاحتمالات فليس للقطع إليه سبيل . وقوله « **تبت إليك** » أى من سؤالى ما لم تقدره لى .

---

(٢) « .. لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخرموسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك إنى تبت إليك وأنا أول المؤمنين » .   (٢) الأعراف : ١٤٣ .

وقد قال أبو بكر الهزلى فى قوله تعالى . « لن ترانى » أى ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلىّ فى الدنيا ، وأنه من نظر إلى مات .

وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه إن رؤيته تعالى فى الدنيا ممتنعة ، لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة عرضاً للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية .

فإذا كان فى الآخرة ، وركبوا تركيبا آخر ، ورزقوا قوى ثابتة باقية ، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم ، قووا بها على الرؤية .

وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس – رحمه الله – قال : « **لم يُرَ فى الدنيا لأنه باق ، ولا يرى الباق بالفانى ، فإذا كان فى الآخرة ، ورزقوا أبصارا باقية رؤى الباق بالباق** .

وهذا كلام حسن مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة . فإذا قوى الله من شاء من عباده ، وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع فى حقه . وقد ذكرت أقوال كثيرة فى قوة بصر موسى ومحمد – ﷺ – ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية مُنِحَاهَا لإدراك ما أدركاه ، ورؤية ما رأياه .

وذكر بعضهم [1] فى أثناء أجوبته عن الآيتين[2] : ما معناه : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرّ صعقا . وأن الجبل رأى ربه فصار دكا بإدراك خلقه الله له .

(١) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ .
(٢) (لا تدركه الأبصار ..) و (.. ولن ترانى) .

واستنبط ذلك – والله أعلم – من قوله : [1]

﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾

ثم قال :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رآه – على هذا القول .

وقال جعفر بن محمد : شغله بالجبل حتى تجلى ، ولولا ذلك لمات صعقا بلا إفاقة .

وقوله هذا : يدل على أن موسى رآه . وقد وقع لبعض المفسرين فى الجبل أنه رآه . وبرؤية الجبل له استدل من قال برؤية محمد نبيّنا له إذ جعله دليلا على الجواز .

ولامرية فى الجواز . إذ ليس فى الآيات نص فى المنع .

وأما وجوبُه لنبينا – ﷺ – . والقول بأنه رآه بعينه ، فليس فيه قاطع أيضا ولا نص . إذا المعول فيه على آيتى النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن ، ولا أثر قاطع متواتر عن النبى – ﷺ – بذلك . وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده وهو لم يسنده إلى النبى – ﷺ – .

---

(1) الأعراف : ١٤٣ .

والأحاديث الأخرى فى ذلك تحتمل التأويل ، وبعضها مضطرب الإسناد والمتن . وليس يمكن الاحتجاج . بواحد منها على صحة الرؤية .

والله تعالى قادر على خلق الإدراك الذى فى البصر فى القلب ، فإن ورد حديث نص بيّن فى الباب اعتقد ووجب المصير إليه ، إذ لا استحالة فيه ، ولا مانع قطعى يرده ، والله الموفق للصواب .

مناجاته لله تعالى :

وأما ما ورد فى قصة الإسراء من مناجاته لله تعالى ، وكلامه معه بقوله : [1]

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾

إلى ما تضمنته الأحاديث .

فأكثر المفسرين على أن الموحى هو الله — عز وجل — إلى جبريل ، وجبريل إلى محمد — ﷺ — إلا شذوذا منهم[2] .

فذهب بعضهم إلى أنه أوحى إليه بلا واسطة ، وأن محمدا — عليه السلام – كلم ربه فى الإسراء .

ونقل عن ابن عباس فى قصة الإسراء عنه – ﷺ – فى قوله تعالى[3]

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) النجم ١٠

(٢) إلا جماعة شذت عن الكثرة . وشذوذ هنا جمع شاذ .

(٣) النجم ٨

قال « **فارقنى جبريل ، فانقطعت الأصوات عنى ، فسمعت كلام ربى ، وهو يقول : ليهدأ روعك يامحمد . اذْنُ اذْنُ** »[1] .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[2]

فقالوا هى ثلاثة أقسام :

١ – من وراء حجاب لتكليم موسى .

٢ – بإرسال الملائكة ، كحال جميع الأنبياء ، وأكثر أحوال نبينا – ﷺ – .

٣ – والثالث قوله «**إلا وحيا** » ، ولم يبق من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة .

وقد قيل : « **الوحى** هنا هو مايلقيه فى قلب النبى دون واسطة » .

وكلام الله تعالى لمحمد – ﷺ – ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلا ، ولا ورد فى الشرع قاطع يمنعه . فإن صح فى ذلك خبر اعتمد عليه .

---

(١) اذْنُ : اقترب .

(٢) الشورى ٥١ .

وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به ، نصَّ ذلك فى الكتاب ، وأكده بالمصدر (**تكليما**) دلالة على الحقيقة ، ورفع مكانه – على ما ورد فى حديث الإسراء – فى السماء السابعة بسبب كلامه ، ورفع محمدا فوق هذا كله ، حتى بلغ مستوى ، وسمع صريف الأقلام .

فكيف يستحيل فى حق هذا ، أو يبعد سماع الكلام ، فسبحان من خص من شاء بما شاء ، وجعل بعضهم فوق بعض درجات .

الدنّو والقُرب :

وأما ما ورد فى حديث الإسراء ، وظاهر الآية من الدنو والقرب من قوله تعالى:[1]

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾

فأكثر المفسرين : أن الدنو والتدلى منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام . أو مختص بأحدها من الآخر ، أو من سدره المنتهى .

ـــ قال ابن عباس : هو محمد دنا فتدلى من ربه .

ـــ وقيل معنى « دنا » قرب ، و « تدلى » زاد فى القرب .

ـــ وقيل : هما بمعنى واحد أى قرب .

---

(١) النجم : ٨ ، ٩ .

ــ وحُكي عن ابن عباس قوله : هو الرب دنا من محمد فتدلى إليه .. أى أمْرُه وحُكْمه .

ــ وقوله أيضا : هو مقدم ومؤخر : تدلى الرفرف[1] لمحمد ــ ﷺ ــ ليلة المعراج فجلس عليه ، ثم رفع فدنا من ربه .

قال « فارقنى جبريل ، وانقطعت عنى الأصوات ، وسمعت كلام ربى عز وجلّ

ــ وعن أنس فى الصحيح[2] « **عرّج بى جبريل إلى سدره المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه بما شاء ، وأوحى إليه خمسين صلاة** .. وذكر حديث الإسراء .

ــ وقال جعفر بن محمد : أدناه منه ربه حتى كان منه كقاب قوسين . والدنو من الله لا حدّ له ، ومن العباد بالحدود .

وقال ايضا : انقطعت الكيفية عن الدنّو ، ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه ، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان ، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه ، وزال عن قلبه الشك والارتياب » .

اعلم[3] أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله ، أو إلى الله ، فليس بدنو مكان ، ولا قرب مدى ، بل كما ذكرنا عن جعفر ابن محمد الصادق ليس بدنو حد ، وإنما دنو النبى ــ ﷺ ــ من ربه ، وقربه منه إبانة عظيم منزلته ، وشريف رتبته ، وإشراق أنوار

(١) البساط .
(٢) أى : صحيح البخارى على ما رواه شريك بن أبى نمير .
(٣) الكلام : للقاضى عياض .

معرفته ، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام .

ويُتأول فيه ما يتأوّل فى قوله[1] : « **ينزل ربنا إلى سماء الدنيا** » على أحد الوجوه نزول إفضال وإجمال ، وقبول وإحسان .

قال الواسطى : من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة ، بل كل ما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدا ، يعنى عن درْك حقيقته . إذْ لا دنو للحق ولا بعد .

وقوله :[2]

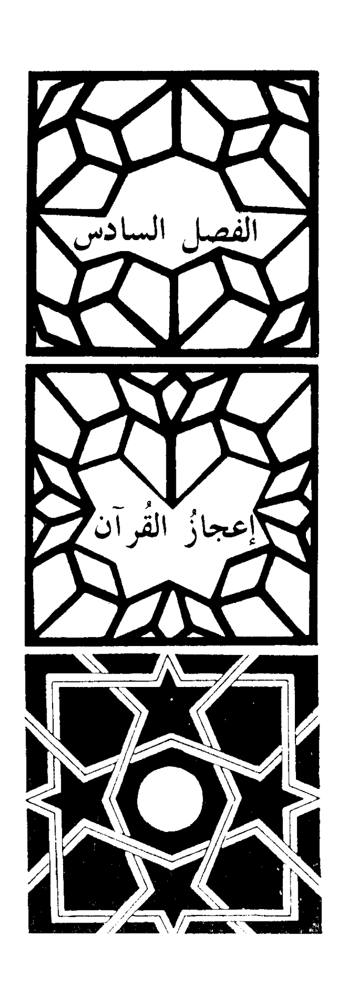
﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾

فمن جعل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحل ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ . وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التخفى ، وإنافة[3] المنزلة والرتبة من الله له .

ويُتَأوَّل فيه ما يتأول فى قوله « **من تقرب منى شبرا ، تقربت منه ذراعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة** » .

قربٌ بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول .

(١) كما جاء فى كتب السنة عن أبى هريرة رضى الله عنه — مرفوعا .
(٢) النجم : ٩ .
(٣) إنافة : رفع .



الفصل السادس

إعجازُ القُرآن

ينطوى كتاب الله العزيز على وجوه من الإعجاز **كثيرة وتحصيلها** من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه :

الوجه الأول : حسنُ تأليفه ، والتئام[1] كَلِمِه ، **وفصاحتُه** ، ووجوهُ إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب :

وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وفرسان الكلام قد خُصّوا من البلاغة والحكم مالم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان[2] مالم يوت إنسان ...، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سِمط اللآل[3] ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويُذهبون الإحَن[4] ، ويهيجون الدمن[5] ، ويجرءون الجبان ، ويبسطون يد الجعْدِ البنان[6] ، ويصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا .

---

(١) الالتئام : التناسب والانتظام .

(٢) ذرابة اللسان : حدته وقوته

(٣) سمط اللآل : الخيط تسلك فيه حبات اللؤلؤ .

(٤) الإحن : جمع إحنة وهى الحقد والبغضاء .

(٥) الدمن : جمع دمنة : وهى ما تبقى من آثار الديار .

(٦) الجعد البنان : أى منقبض اليد : كناية عن البخل .

منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى . ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية .. وقالوا فى الغث والسمين ، وتقاولوا فى القُلّ والكُثْر ، وتساجلوا فى النظم والنثر ، فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز : (1)

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

أحكمت آياته وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتظافر(2) إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت فى الحسْن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كلَّ البيان جوامعه وبدائعه ، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم أفسح ماكانوا فى هذا الباب مجالا ، وأشهر فى الخطابة رجالا ، وأكثر فى السجع والشعر سجالا ، وأوسع فى الغريب واللغة مقالا ، بلغتهم التى بها يتحاورون ، ومنازعهم التى عنها يتناضلون صارخاً بهم فى كل حين ، ومقرعا لهم بضعا وعشرين عاما على رءوس الملأ أجمعين . (3)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(1) فصلت : 42

(2) تظافر : تفوق على غيره

(3) يونس : 38

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (1)

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (2)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (3)

وذلك أن المفترى أسهل ، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب ، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب . ولهذا قيل : فلان يكتب كما يقال ، وفلان يكتب كما يريد ، وللأول على الثانى فضل ، وبينهما شأو بعيد .

(1) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .
(2) الإسراء : ٨٨ .
(3) هود : ١٣ .

فلم يزل يقرعهم — ﷺ — أشد التقريع ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويذم آلهتهم وإياهم .. ، وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجمون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والاغتراء بالافتراء ، وقولهم :

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (1)

﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ (2)

﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ (3)

﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (4)

والمباهتة والرضى بالدنيئة كقولهم :

﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (5)

﴿ فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (6)

﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (7)

---

(1) المدثر : ٢٤ ، ٢٥ .
(2) القمر : ٢ .
(3) الفرقان : ٤ .
(4) الفرقان : ٥ .
(5) البقرة : ٨٨ .
(6) فصلت : ٥ .
(7) فصلت : ٢٦ .

والادعاء مع العجز بقولهم: (1)

﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾

وقد قال لهم الله : (2)

﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾

فما فعلوا ولاقدروا ،

ومن تعاطى ذلك من سفائهم كمسيلمة ، كشف عُوَارَه(3) لجميعهم ،.. وولوا عنه مدبرين ، وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون ، ولهذا لمّا سمع الوليد بن المغيرة من النبى — ﷺ : (4)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قال « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر . ومايقول هذا بشر » .

— وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : (5)

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

(1) الأنفال : ٣١ .
(2) البقرة : ٢٤ .
(3) العوار : العيب والنقص .
(4) النحل : ٩٠ .
(5) الحجر : آية ٩٤ .

فسجد وقال : سجدت لفصاحته .

ــ وسمع آخر يقرأ :[1]

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾

قال أشهد أن مخلوقا لايقدر على مثل هذا الكلام .

وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية فقال لها : « قاتلكِ الله ما أفصحك » !! .

فقالت : أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى :[2]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين .

***

وكون القرآن من قبل النبى ــ ﷺ ــ وأنه أتى به معلوم ضرورة .

(١) يوسف : ٨٠

(٢) القصص ٧ .

وكونه — ﷺ — متحديا به معلوم ضرورة وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة .

وكونه فى فصاحته خارقا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة . وسبيل من ليس من أهلها علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته ، واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته .

وأنت إذا تأملت قوله تعالى : (١)

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾

وقوله : (٢)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾

وقوله : (٣)

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وقوله : (٤)

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) البقرة ١٧٩ .
(٢) سبأ ٥١ .
(٣) فصلت : ٣٤
(٤) هود : ٤٤

وأشباه ذلك من الآيات ، بل

أكثر القرآن ، حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها ، وكثرة معانيها ، وديباجه عبارتها ، وحسن تأليف حروفها ، وتلاؤم كلمها ، وأن تحت كل لفظه منها جملا كثيرة ، وفصولا جمة ، وعلوما زواخر .

ثم هو فى سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التى يضعف فى عادة الفصحاء عندها الكلام ، ويذهب ماء البيان . آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض ، والتئام سرده ، وتناصف وجوهه ، كقصه يوسف على طولها . ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنسى فى البيان صاحبتها ، وتناصف فى الحسن وجه مقابلتها ، ولا نفور للنفوس من ترديدها ، ولا معاداة لمُعادها .

***

الوجه الثانى من إعجازه : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفت مقاطع آية ، وانتهت فواصل كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شىء فيه منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلهت[1] دونه أحلامهم[2] ، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم ، من نثر أو نظم ، أو سجع أو رجز أو شعر .

ــ قال الوليد بن المغيرة لقريش :

إن وفود العرب تردُ فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا » .

(١) اندهشت .

(٢) عقولهم .

فقالوا : نقول : كاهن قال : والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته[1] ولا سجعه » قالوا « مجنون » قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته » قالوا « فنقول شاعر » قال « ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشاعر .

قالوا : فنقول : « ساحر » قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عُقَدِه[2] قالوا « فما نقول » ؟ قال ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وأن أقرب القول أنه ساحر ، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته » . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس .

والأخبار فى هذا صحيحة كثيرة ، والإعجاز بكل واحد من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها ، والأسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما ، إذ كل واحد خارج عن قدرتها ، مباين لفصاحتها وكلامها . وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين ، وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب ، وأتى على ذلك بقول تمجُّه الأسْماع ، وتنفرُ منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه والعلم بهذا ضرورة وقطعا . ومن تفنن فى علوم البلاغة ، وأرهف خاطِرَهُ ولسانَهُ أدبُ هذه الصناعة لم يخْف عليه ما قلناه .

وقد اختلف أئمة أهل السنة فى بيان وجوه إعجازه فأكثرهم يقول : إنه مما جمع فى قوة جزالته ونصاعة ألفاظه ، وحسن نظمه

(١) الزمزمة : الصوت الخفى .
(٢) النفث : النفخ ، والنفث فى العقد من أعمال السحرة .

وإيجازه ، وبديع تأليفه وأسلوبه ، لا يصح أن يكون فى مقدور البشر . وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها : كإحياء الموتى ، وقلب العصا ، وتسبيح الحصا .

وذهب الشيخ أبو الحسن الأشعرى إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا وعجّزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابه ، وعلى الطريقتين فعجز العرب عنه ثابت ، وإقامة الحجة عليهم بما أن يكون فى مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع ، وهو أبلغ فى التعجيز ، وأحرى بالتقريع . والاحتجاج بمجىء بشر مثلهم بشىء ليس من قدرة البشر لازم ، وهو أبهر آية ، وأقمع دلالة .

وعلى كل حال فما أتوا من ذلك بمقال بل صبروا على الجلاء ، والقتل ، وتجرعوا كاسات الصغار[1] والذل ، وكانوا من شموخ الأنف ، وإباء الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ، ولا يرضونه إلا اضطرارا ، وإلا فالمعارضة لو كانت من قُدَرِهم[2] ، والشغل بها أهون عليهم ، وأسرع بالنجحْ وقطع العذر ، وإفحام الخصم لديهم ، وهم ممن لهم قدرة على الكلام ، وقدوة فى المعرفة به لجميع الأنام ، وما منهم إلا من جَهَدَ جَهْدَه ، واستنفر ما عنده فى إخفاء ظهوره ، وإطفاء نوره فما جلَوْا[3] فى ذلك خبيئة من بنات شفاههم[4] ، ولا بنطفة من معين مياههم ، مع طول الأمر ، وكثرة العدد وتظاهر

(١) الصغار : المذلة .

(٢) قُدَرِهم : جمع قدرة

(٣) أظهروا .

(٤) بنات الشفاه : كناية عن الكلمات .

الوالد وما ولد ، بل أبلسو [1] فما نبسوا[2] ، ومنعوا فانقطعوا ، فهذان النوعان من إعجازه .

والوجه الثالث من الإعجاز : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، ومالم يكن ، ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر :

— قوله تعالى : [3]

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

— وقوله تعالى : [4]

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

— وقوله تعالى : [5]

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

— وقوله تعالى : [6]

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [7]

(١) أبلسوا : يئسوا .
(٢) نبسوا : نطقوا .
(٣) الفتح : ٢٧ .
(٤) الروم : ٣ .
(٥) الصف : ٩ .
(٦) النور : ٥٥ .
(٧) النصر : ١ .

فكان جميع

هذا كما قال ، **فغلبت الروم فارس فى بضع سنين ، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا ، فما مات ﷺ — وفى بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام .**

واستخلف الله المؤمنين فى الأرض ومكن دينهم ، و ملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال ﷺ « زُويتْ[1] الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: [2]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فكان كذلك ، وما قدر أعداؤه على إطفاء شىء من نوره ، ولا تغيير كلمة من كلامه ، ولا تشكيك المسلمين فى حرف من حروفه والحمد لله .

ومنه قوله تعالى : [3]

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وقوله تعالى : [4]

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

---

(١) زويت : جمعت وطويت : والحديث أخرجه مسلم .
(٢) الحجر : ٩ .
(٣) القمر ٤٥ .
(٤) آل عمران ١١١ .

فكان كل ذلك وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم فى حلفهم ، وتقريعهم بذلك .

ــ ومنه قوله تعالى : (١)

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ولما نزلت بشر

النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم ، وكان المستهزؤون نفراً بمكة ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه فهلكوا .

ــ وقوله تعالى : (٢)

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

فكان كذلك على كثرة من رام ضره ، وقصد قتله .

★★★

والوجه الرابع : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة(٣) مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك .

فيورده النبى ــ ﷺ ــ على وجهه ، ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم .

وقد علموا أنه ــ ﷺ ــ أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل

---

(١) الحجر ٩٥ .

(٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) الدائرة : الدارسة .

بمدارسة ولا مثافنة[1] . وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه ـــ ﷺ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا : كقصص الأنبياء مع قومهم ، وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته ، وأصحاب الكهف وذى القرنين ، ولقمان وابنه وأشباه ذلك من الأنبياء ، وبدء الخلق ، وما فى التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، مما صدقه فيه العلماء بها ، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها ، بل أذعنوا لذلك ، فمن موفق آمن بما سبق له من خير ، ومن شقى معاند حاسد .

ومع ذلك لم يُحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عدواتهم له ، وحرصهم على تكذيبه ، وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم ، وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ـــ ﷺ ، وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم ، وأسرار علومهم ، ومستودعات سيرهم ، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم . ومضمنات كتبهم ، مثل سؤالهم عن الروح ، وذى القرنين وأصحاب الكهف ، وعيسى ، وحكم الرجم ، وما حرم إسرائيل على نفسه ، وما حرم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم ، فحرمت عليهم ببغيهم .

وقوله تعالى :[2]

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾

---

(١) يعنى بالمثافنه مجالسة أهل العلم طويلا والتلقى عنهم .

(٢) الفتح : ٢٩

وغير ذلك من أمورهم التى نزل فيها القرآن فأجابهم ، وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك . فما عرف عن أحد أنه أنكر ذلك ، أو كذّبه ، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته ، وصدّق مقالته ، واعترف بعناده ، وحسده إياه .

ومن باهَتَ فى ذلك بعض المباهته ، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دعى إلى إقامة حجته وكشف دعوته ، فقيل له .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

فقُرّع ووبخ ،

ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع ، فمن معترف بما جحده ، ومتواقح يلقى على فضيحته من كتابه يَدَهُ ، ولم يؤثر أن واحدا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ، ولا أبدى صحيحا ولا سقيما من صحفه .

قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران : ٩٣ — ٩٤ .

(٢) المائدة : ١٥ — ١٦ .

هذه هى الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية .

ومن الوجوه البيّنة فى إعجازه من غير هذه الوجوه : آى وردت بتعجيز قوم فى قضايا ، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ، ولا قدروا على ذلك : كقوله لليهود : (١)

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قال أبو إسحق الزجّاج : فى هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة ، لأنه قال لهم « **فتمنوا الموت** » وأعلمهم أنهم لا يتمنوه أبدا ، فلم يتمنه واحد منهم .

وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى ، حيث وفد عليه أساقفة نجران ، وأتوا الإسلام ، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله : (٢)

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

---

(١) البقرة : ٩٤ .

(٢) آل عمران : ٦١ .

فامتنعوا منها ، ورضوا بأداء الجزية ،
وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم : قد علمتم أنه نبى ، وأنه ما لَا عَنَ قوما نبيٌّ قط فبقى كبيرهم ولا صغيرهم » .

★★★

ومن إعجازه : الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله ، وإنافة خطره[1] وهى على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستثقلون سماعه ، ويزيدهم نفورا .. كما قال تعالى[2] . ويودون انقطاعه لكراهتهم له ، ولهذا قال ـــ ﷺ ـــ « **إن القرآن صعبٌ مستصعبٌ على من كرهَهُ وهو الحكم** » .

وأمّا المؤمن فلاتزال روعته به ، وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابا ، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه ، وتصديقه به : قال تعالى:

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[3]

وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[4]

---

(١) إنافة : سمو ورفعة .

(٢) اشارة إلى قوله تعالى « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » الإسراء ٤٦ .

(٣) الزمر : من الآية : ٢٣ .　　(٤) الحشر : ٢١ .

ومما يدل على أنها خصوصية من خصوصيات القرآن . أن هذه الهيبة تعترى من لا يفهم معانيه ، ولا يعلم تفاسيره ، كما روى عن نصرانى : أنه مرّ بقارئ فوقف يبكى ، فقيل له ممّ بكيت ؟ فقال : للشجا والنظم[1] .

وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده ، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن بالرسول عليه السلام ، ومنهم من كفر .

عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبى — ﷺ — يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ ﴾[2] كاد قلبى أن يطير للإسلام .

وقد حكى عن غير واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك : فحكى أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه ، وشرع فيه ، فمر بصبى يقرأ:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤٤ ﴾[3]

(١) أى : لما اعتراه من الحزن ، وما أخذ قلبه من روعة الأسلوب وجلاله .
(٢) الطور : ٣٥ — ٣٧ .
(٣) هود : ٤٤ .

فرجع فمحا ما عمل ، وقال أشهد أن هذا لا يعارض .

وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الاندلس فى زمنه فحكى : أنه رام شيئا من هذا ، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها ، وينسج بزعمه على منوالها ، قال : فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى على التوبة .

ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال تعالى : [1]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وقال تعالى : [2] ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بإنقضاء أوقاتها ، فلم يبق إلا خبرها . والقرآن العزيز الباهرة آياته ، الظاهرة معجزاته على ما كان عليه إلى وقتنا هذا ، حجته قاهرة ، ومعارضته ممتنعة ، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان ، وحملة علم اللسان ، وأئمة البلاغة ، وفرسان الكلام ، وجهابذة[3] البراعة ، والملحد فيهم ، والمعادى للشرع عتيد ، فما منهم من أتى بشيء يُؤْثَر[4] فى معارضته ، ولا ألّف

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) فصلت : ٤٢ .

(٣) جهابذة : جمع جِهْبِذ وهو العالم الفائق .

(٤) يؤثر : ينقل عنه .

كلمتين فى مناقضته ، ولا قدرة فيه على مطعن صحيح ، ولا قدح المتكلف من ذهنه فى ذلك إلا بزند شحيح[1] .

بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه فى العجز بيديه ، والنكوص[2] على عقبيه .

★★★

وقد عدّ جماعة من الأئمة ومقلدى الأمة فى إعجازه وجوها كثيرة منها :

أن قارئه لا يمله ، وسامعه لا يمجُّه[3] ، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، لايزال غضا طريا ، وغيره من الكلام ــ ولو بلغ فى الحسن والبلاغة مبلغة ــ يُملُّ مع الترديد ، ويعادى إذا أعيد . وكتابنا يُسْتَلذ به فى الخلوات ، ويؤنس بتلاوته فى الأزمات ، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك ، حتى أحدث لها أصحابها لحونا وطرقا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها .

ولهذا وصف رسول الله[4] ــ ﷺ ــ القرآن بأنه « لا يَخْلَقُ[5] على كثرة الردّ ، ولا تنقضى عبره ، ولا تفنى عجائبه . هو الفصل[6] ليس بالهزْل ، لا يشبعُ منه العلماءُ ، ولا تزيغُ[7] به الأهواءُ ، ولا

---

(١) شحيح : بخيل . والعبارة كناية عن إخفاق كل من حاول معارضة القرآن .

(٢) النكوص : الرجوع .

(٣) يمج : يلفظ الشراب من فمه . ويقصد يكرهه .

(٤) سنن الترمذى باب فضائل القرآن .

(٥) لا يخلق : لا يبلى .

(٦) الفصل : الجد والحسم .

(٧) تزيغ : تضلّ .

تلتبس به الألسنة ، هو الذى لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا :[1]

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾

★★★

ومنها : جمعة لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ، ولا محمد — ﷺ — قبل نبوته خاصة بمعرفتها ، ولا القيام بها ، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم .

فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبه على طرق الحجج والعقليات ، والرد على فِرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد ، رام[2] المتحذلقون[3] بعدُ أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها .

كقوله تعالى : [4]

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ ﴾

وقوله تعالى :[5]

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾

---

(١) الجن : ١ ، ٢ .
(٢) رام : أراد .
(٣) المتحذلقون : أدعياء الفهم .. والفطنة والذكاء .
(٤) يس : ٨١ .
(٥) يس : ٧٩ .

وقوله تعالى : (١)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

إلى ما حواه من علوم السير ، وأنباء الأمم والمواعظ والحكم ، وأخبار الدار الآخرة ، ومحاسن الآداب والشيم ، قال الله — جل اسمه : (٢)

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقال : (٣)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وقال ﷺ « **إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجرا وسنّة خالية ، ومثلا مضروباً فيه نبؤكم ، وخبرُ ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكمُ ما بينكم ، لا يُخلقُه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الحقّ ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم**

(١) الأنبياء : ٢٢ .
(٢) الأنعام ٣٨ .
(٣) الروم : ٥٨ .

به عدل ، ومن خاصم به فَلَج[1] ، ومن قَسَمَ به أقسط[2] ومن عمل به أُجر ، ومن تمسك به هُدى إلى صراط . مستقيم . من طلب الهدى من غيره أضلّه الله ، ومن حَكَم بغيره قصمه الله . هو الذكر الحكيم ، والنورُ المبين ، والصراط المستقيم ، وحبلُ الله المتين ، والشفاء النافع . عصمةٌ لمن تمسك به ، ونجاةٌ لمن اتَّبعهُ لا يعوج فيقوَّم ، ولا يزيغ فيستعتب[3] ، ولا تنقضى عجائبهُ ، ولا يخلق على كثرة الردّ » .

وقال تعالى : [4]

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

وقال تعالى : [5]

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

فجمع فى القرآن مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما فى الكتب قبله التى ألفاظها على الضعف منه مرات .

★★★

ومن وجوه إعجازه : جمعه بين الدلول ومدلوله[6] ، وذلك أنه احتج بنظم القرآن ، وحسن وصفه ، وإيجازه وبلاغته ، وأثناء هذه البلاغة

---

(١) ظفر وغلب .

(٢) عدل .

(٣) يستعتب : يلام ويعاب .

(٤) النمل : ٧٦ .

(٥) آل عمران : ١٣٨ .

(٦) أى القضية أو الحقيقة التى سيق الدليل لإثباتها أو تأكيدها .

أمْره ونهيه ووعدُه ووعيدُه ، فالتالى[1] له يفهم موضع الحجة والتكليف معا من كلام واحد ، وسورة منفردة .

***

ومنها : أن جعله فى حيِّز المنظوم الذى لم يُعْهد . ولم يكن فى المنثور ، لأن المنظوم أسهل على النفوس ، وأوعى للقلوب ، وأسْمحُ فى الآذان ، وأحلى على الأفهام فالناس إليه أميل ، والأهواء[2] إليه أسرع .

***

ومن وجوه إعجازه أيضا : تيسيره تعالى حفْظَه لمتعلمه ، وتقريبه على متحفظيه .

قال تعالى : [3]

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

وسائر الأمم لا يحفظ كتبَها الواحدُ منهم ، فكيف الجَّماء[4] على مرور السنين عليهم ، والقرآن ميسّر حفظه للغلمان فى أقرب مدة .

***

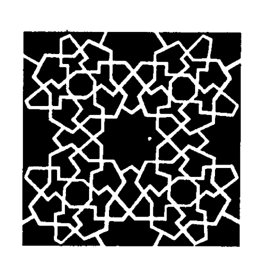
ومنها : مشاكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن ائتلاف أنواعها ، والتئام أقسامها ، وحسن التخلص[5] من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه ، وانقسام السورة الواحدة إلى : أمر ونهى ، وخبر واستخبار ، ووعد ووعيد ، وإثبات نبوة

(١) الأهواء : الرغبات والميول .
(٢) التالى : القارئ .
(٣) القمر : ١٧
(٤) الجماء : الكثير .
(٥) الخروج .

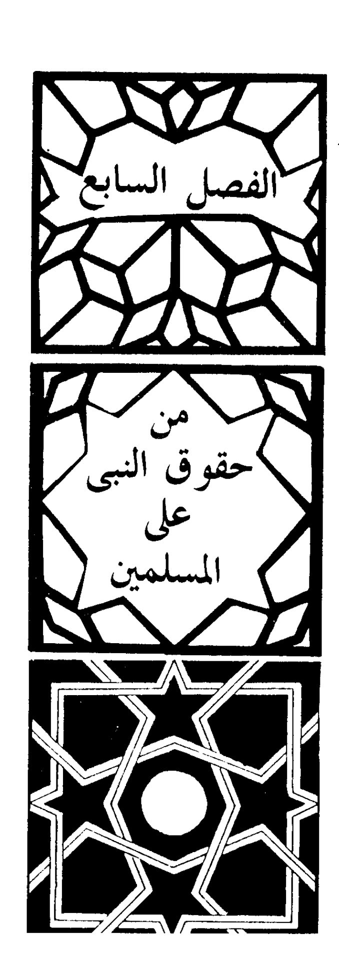
وتوحيد ، وتقرير[1] وترغيب وترهيب ، إلى غير ذلك من فوائدة ، دون خلل يتخلل فصوله . والكلام الفصيح إذا اعتوره[2] مثل هذا ضعفت قوته ، ولانت جزالته ، وقلّ رونقه ، وتقلقلت ألفاظه .

فتأمل أول سورة (صٓ) ، وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم ، وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، وما ذكر من تكذيبهم بمحمد ﷺ ، وتعجبهم مما أتى به ، والخبر عن اجتماع ملتهم على الكفر ، وما ظهر من الحسد فى كلامهم ، وتعجيزهم ، وتوهينهم ، ووعيدهم بخزى الدنيا والآخرة ، وتكذيب الأمم قبلهم ، وإهلاك الله لهم ، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم ، وتصبير النبى — ﷺ — على أذاهم ، وتسليته بكل ما تقدم ذكره ، ثم أخذ فى ذكر داوود ، وقصص الأنبياء . كل هذا فى أوجز كلام ، وأحسن نظام .

وغير هذا كثير ذكر فى إعجاز القرآن مما يدخل فى باب بلاغته ويحتاج إلى كلام كثير .



(١) يقصد بالتقرير : إقرار ما جاء فى شرع من قبلنا ووافق ما عليه ملتنا .
(٢) أصابه .


الفصل السابع
من
حقوق النبى
على
المسلمين

للنبى ـــ ﷺ ـــ حقوق على المسلمين أهمها :

١ ـــ وجوب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به :

ـــ وقد قال تعالى فى ذلك : (١)

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

ـــ وقال تعالى : (٢)

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فالإيمان بالنبى محمد ـــ ﷺ ـــ واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ، ولا يصح إسلام إلا معه .

ـــ قال تعالى: (٣)

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) التغابن : ٨ .

(٢) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) الفتح : ١٣ .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ — قال : **أمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بى ، وبما جئت به . فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .. »** .

والإيمان به — ﷺ — هو تصديق نبوته ، ورسالة الله له ، وتصديقه فى جميع ما جاء به وما قاله ، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله — ﷺ — فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق له .

وقد قال جبريل للنبى ﷺ : أخبرنى عن الإسلام . فقال : **أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله** ، وذكر أركان الإسلام . ثم سأله عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكة وكتبه ورسله .. » .

فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد[1] بالجنان[2] ، والإسلام به إلى النطق باللسان . وهذه الحالة المحمودة التامة . وأما الحال المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب ، وهذا هو النفاق .

قال الله تعالى : [3]

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾

---

(١) العقد : الإيمان الحاسم .

(٢) الجنان : القلب .

(٣) المنافقون : ١ .

أى كاذبون فى قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم ، وهم لا يعتقدونه ، فلما لم تصدق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فخرجوا عن اسم الإيمان ، ولم يكن لهم فى الآخرة حكمه . ولحقوا بالكافرين فى الدرك الأسفل من النار وبقى عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان فى أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة ، وحكام المسلمين ، الذين أحكامهم على الظواهر . بما أظهروه من علامة الإسلام ، إذ لم يجعل للبشر سبيل إلى السرائر ، ولا أمروا بالبحث عنها .

٢ ــ وجوب طاعته :

وأما وجوب طاعته ، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به ، وجبت طاعته ، لأن ذلك مما أتى به .

ــ قال تعالى : (١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

ــ وقال تعالى : (٢)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

فجعل تعالى

طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل الثواب ، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب ، وأوجب امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

---

(١) الأنفال : ٢٠ .
(٢) النساء : ٨٠ .

قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول فى التزام سنته ، والتسليم لما جاء به ، وقالوا : ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه ، وقالوا : من يطع الرسول فى سنته يطع الله فى فرائضه .

وقد حكى الله عن الكفار فى دركات جهنم « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون :[1]

﴿ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ ﴾

فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمنى .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « **مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم إنى رأيتُ الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العُريان**[2] **، فالنجاءَ النجاءَ**[3] .

فأطاعة طائفة من القوم فأدلجوا[4] ، فانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به » .

***

٣ ــ وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهديه .

وأما وجوب اتباعه ــ ﷺ ــ وامتثال سنته ، والاقتداء بهديه

---

(١) الأحزاب : ٦٦ .

(٢) النذير العريان : من يخلع ثيابه ويلوح بها منذرا محذراً حتى يراه القريب والبعيد .

(٣) النجاة : والخلاص .

(٤) ساروا ليلا .

فقد قال تعالى: (1)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

وقال تعالى: (2)

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

.أي ينقادوا لحكمك، يقال «سلّم و استسلم» و «أسلم» إذا انقاد.

وقال تعالى: (3)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

وقيل هو عتاب للمتخلفين عنه. وقد أرسل الله تعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليزكيهم. ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

---

(1) آل عمران: ٣١.
(2) النساء: ٦٥.
(3) الأحزاب: ٢١.

عن العرباض بن سارية — رضى الله عنه — فى حديثه فى موعظة النبى — ﷺ انه قال « **فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلالة** » .

وفى حديث أبى رافع عنه ﷺ **لا ألفين**(١) **أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمرُ من أمرى ، مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه فيقول : لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه** .

وقال ﷺ : « **منْ اقتدى بى فهو منى ، ومن رغب عن سنتى فليس منى** » .

وقال ﷺ : **العلم ثلاثة ، فما سوى ذلك فهو فضل**(٢) : « **آيةٌ محكمةٌ ، أو سنةٌ قائمة أو فريضةٌ عادلة** » .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ « المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد .

ويروى أن النبى — ﷺ — قال لبلال بن الحارث : « **من أحيا سُنّة من سنتى قد أميتت بعدى فإنّ له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا** .

ومن ابتدع بدعةً ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا » .

---

(١) لا ألفينّ : لا أجدن .

(٢) الفضل هو الزيادة .

وقد كان السلف والأئمة يحرصون على اتباع سنته — ﷺ — ويقتدون بهدية وسيرته .

قال عمر بن عبد العزيز : « سنّ رسول الله — ﷺ — سننا الأخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله .. من اقتدى بها فهو مهتد ، ومن انتصر بها منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولّى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » .

وقال ابن عمر : صلاة السفر ركعتان ، من خالف السنة كفر .

وقال الشافعى : ليس فى سنة رسول الله ﷺ — إلا اتباعها » .

وقال عمر — رضى الله عنه — ونظر إلى الحجر الأسود « إنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولولا أنى رأيت رسول الله — ﷺ — يقبلك ما قبلتك » ثم قبّله .

ورؤى عبد الله بن عمر يدير ناقته فى مكان فسئل عنه فقال « لا أدرى ، إلا أنى رأيت رسول الله — ﷺ — فعله ففعلته » .

وقال أبو عثمان الحيرى « من أمرّ السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

وقال سهل التسترى : أصول مذهبنا ثلاثة : الاقتداء بالنبى — ﷺ — فى الأخلاق والأفعال ، والأكل من الحلال ، وإخلاص النية فى جميع الأعمال .

وجاء فى تفسير قوله تعالى: [1] ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾

---

(١) فاطر : ١٠ .

أنه الاقتداء برسول الله ﷺ .

٤ ـــ حظر مخالفة أمره :

ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة مُتَوَعَّدٌ من الله عليه بالخذلان والعذاب .

قال تعالى : [١]

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

وقال تعالى : [٢] ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

وقال عليه السلام : « **من أدخلَ فى أمرنا ما ليسَ منه فهو ردٌّ** » .

وقال ـــ ﷺ ـــ وجىء بكتابٍ فى كتف[٣] : « كفى بقوم حمقا ، أو قال ـــ ضلالا ـــ أن يرغبوا عما جاء به نبيهم أو كتاب

---

(١) النور : ٦٣ .

(٢) النساء : ١١٤ .

(٣) أى جاءه أحد الصحابة بعظمة كتف البعير وقد كتب عليها كلام .

غير كتابهم ، فنزل قوله تعالى : (١)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لست تاركا شيئا كان رسول الله ﷺ — يعمل به إلا عملت به ، إنى أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ .

★★★

٥ — لزوم محبته :

قال الله تعالى : (٢)

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) العنكبوت : ٥١ .

(٢) التوبة : ٢٤ .

فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على التزام محبته ، ووجوب فرضها ، وعظم خطرها . واستحقاقه لها ــ ﷺ ، إذ قرع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى : « **فتربصوا حتى يأتى الله بأمره** » ، ثم فسَّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله .

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ــ ﷺ قال « ثلاث من كنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكرهُ أن يقذف فى النار » .

***

عن صفوان بن قدامة : هاجرت إلى النبى ــ ﷺ فأتيته ، فقلت : يا رسول الله : ناولنى يدك أبايعك ، فناولنى ، فقلت يا رسول الله إنى أحبك . قال : **المرء مع من أَحَبّ** » .

وروى أن رجلا أتى النبى ــ ﷺ ــ فقال يا رسول الله ، لأنت أحب إلىّ من أهلى ومالى ، وإنى لأذكرك فما أصبرُ حتى أجىء فأنظر إليك ، وإنى ذكرتُ موتى وموتَك ، فعرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلتُها لا أراك . فأنزل الله تعالى : (١)

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(١) النساء : ٦٨ .

فدعابه فقرأها عليه .

وفى حديث أنس رضى الله عنه : **من أحبنى كان معى فى الجنة .**

***

وقد روى عن السلف والأئمة كثير من الأخبار التى تدل على محبتهم للنبى — ﷺ — وشوقهم له :

— روى عن أبى بكر — رضى الله عنه أنه قال للنبى — ﷺ — والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقرّ لعينى من إسلامه — يعنى أباه أبا قحافة — وذلك أن إسلام أبى طالب كان أقرّ لعينك » .

— وروى أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله — ﷺ — فقالت ما فعل رسول الله — ﷺ ؟ قالوا : خيرا ، وهو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرنيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلَلَ[1] .

— ولما احتضر بلال — رضى الله عنه — نادت امرأته : واحزناه ، فقال : واطرباه ، غدا ألقى الأحبة محمدا وحزْبَه .

— ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدَّثِنَّة[2] من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان : أنشدك الله يازيد : أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه

---

(١) جلل : هينة محتملة .

(٢) هو صحابى جليل أسر يوم الرجيع مع خبيب ، وبيعا فى مكة .

تصيبه شوكة وإنى جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

والصادق فى حب النبى — ﷺ — تظهر عليه علامات هذا الحب وهى :

أ — الاقتداء به وحب سنته واتباع أقواله وأفعاله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه .

وشاهد هذا قوله تعالى : (١) ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

ب — إيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ (٢) مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٣)

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) هم الأنصار ، وتبوءهم الإيمان يعنى استقراره وقوته وتمكنه من قلوبهم .

(٣) الخصاصة : الفقر والحاجة . الحشر ٩ .

جـ : كثرة ذكر النبى :

فمن أحب شيئا أكثر من ذكره .

د ــ كثرة الشوق إلى لقائه :

فكل حبيب يحبّ لقاء حبيبه . وفى حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون :

غدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه .

هـ ــ تعظيمه وتوقيره عند ذكره ، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه .

وقد روى أن أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا ، واقشعرت جلودهم وبكوا ، وكذلك كثير من التابعين . منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقا إليه ، ومنهم من يفعله تهيبا وتوقيرا .

و ــ محبة من أحب النبى ــ ﷺ ــ ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار وعداوة من عاداهم ، وبغض من أبغضهم وسبهم .

فمن أحب شيئا أحب من يحب . وقد قال ﷺ فى الحسن والحسين : « **اللهم إنى أحبُّهما فأَحِبَّهُماَ** » وقال : « **الله الله فى أصحابى ، لا تتخذُوهم غرضاً[1] بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهمْ فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشكُ أن يأخذه** » .

(١) غرضا : هدفا لسبكم والنيل منهم .

وقد قال أنس حين رأى النبى — ﷺ — يتتبع الدُّبَّاء[1] من حوالى القصعة « **فما زلت أحب الدبّاء من يومئذ** » .

ز : بغض من أبغض الله ورسوله ، ومعاداة من عاداه ، ومجانبة من خان سنته وابتدع فى دينه ، واستثقال كل أمر يخالف شريعته .

قال تعالى :[2]

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

وهؤلاء أصحابه — ﷺ — قد قتلوا أحباءهم ، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم فى مرضاته . وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول : « لو شئت لأتيتك برأسه »[3] .

ح — حب القرآن الذى أتى به النبى — ﷺ وهدى به واهتدى ، وتخلق به .

وهذا يقتضى تلاوته والعمل به وتفهمه ، وحب سنته والوقوف عند حدودها .

قال سهل بن عبد الله « علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبى ﷺ ، وعلامة حب النبى — ﷺ ، —

---

(١) الدباء : اليقطين أو القرع ، وكان النبى — ﷺ — يحبه .

(٢) المجادلة : ٢٢ .

(٣) يعنى رأس أبيه عبد الله بن سلول حين علم أن النبى — ﷺ — قد غضب عليه لقالته المشهوره عقب غزوة بنى المصطلق : « لئن علينا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

حسب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا .. » .

ط ــ الشفقة على أمة محمد ونصحه لهم ، وسعيه فى مصالحهم ، ورفع المضار عنهم .

وذلك تمثلا برسول الله ــ ﷺ ــ فقد كان بالمؤمنين رءوفا رحيما .

***

وقد اختلف الناس فى تفسير محبة الله ومحبة النبى ــ ﷺ ــ وكثرت عباراتهم فى ذلك ، وليست ترجع فى الحقيقة إلى اختلاف مقال ، ولكنها اختلاف أحوال .

ــ قال سفيان : « المحبة اتباع الرسول ــ ﷺ » .

ــ وقال بعضهم : « محبة الرسول اعتقاد نصرته ، والذب عن سنته ، والانقياد لها وهيبة مخالفته » .

ــ وقال بعضهم : المحبة دوام الذكر للمحبوب .

ــ وقال بعضهم : المحبة الشوق إلى المحبوب .

ــ وقال بعضهم : « المحبة مواطأة[1] القلب لمراد الرب ، يحب ما أحب ، ويكره ما كره .

***

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها . وحقيقة المحبة : الميل إلى ما يوافق الإنسان ، وتكون موافقته له إما

(١) يقصد بالمواطأة : الموافقة .

لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة ، والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها ، مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له ، ولاستلذاذه بإدراكه بحاسه عقله وقلبه معانى باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف ، والمأثور عنهم السيرُ الجميلة ، والأفعالُ الحسنة ، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء ...

أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه ، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها .

فإذا تقرر لك هذا نظرت لهذه الأسباب كلها فى حقه ﷺ ، فعلمت أنه جامع لهذه المعانى الموجبة للمحبة :

فقد اتصف ﷺ بجمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن . وأما إحسانه وإنعامه على أمته فقد رأينا منه الكثير ، وكيف وصفه الله تعالى برأفته بهم ورحمته لهم ، وهدايته إياهم وشفقته عليهم ، واستنقاذهم به من النار ..

فإذا كان الإنسان يحب من منحه فى دنياه مرة أو مرتين معروفا ، أو استنقذه من هكلة أو مضرة مدّةً التأذى بها قليل منقطع ، فمن منحه مالا يبيد من النعيم ، ووقاه مالا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب ، وإذا كان يحبُّ بالطبع مِلكٌ لحسن سيرته ، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته ، أو قاص بعيد الدار لما يشار من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب ، وأولى بالميل .

وقد قال على ــ رضى الله عنه ــ فى صفته ــ ﷺ ــ « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه » .

وذُكر عن بعض أصحابه — ﷺ — أنه كان لا يصرف بصره عنه محبة فيه .

***

وحرمة النبى — ﷺ — وتوقيره وتعظيمه بعد موته لازم كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره — ﷺ ، وذكر حديثه وسنته ، وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعِتْرَته[1] ، وتعظيم أهل بيته وصحابته .

قال أبو إبراهيم التجيبى : « واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذُكر عنده أن يخضع ويخشع ، ويتوقر ويسْكُنَ من حركته ، ويأخذ فى هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ، ويتأدب بما أدبنا الله به .

***

هذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضى الله عنهم :

— ناظر أبو جعفر أميرُ المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال : [2]

﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾

ومدح قوما فقال [3]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾

(١) عترته : أهله وعشيرته الأقربون .

(٢) الحجرات : ٢ .

(٣) الحجرات : ٣ .

وذم قوما فقال: [1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

وإن حرْمته ميتا لحرمته حيا » .

ــ وكان عبد الرحمن بن القاسم يَذْكر النبى ــ ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه فى فمه هيبة منه لرسول الله ــ ﷺ .

ويروى أن الإمام مالكا كان إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم ، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله ، واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ، ولبس ساجة [2] وتعمم ، ووضع على رأسه رداءه ، وتلقى له منصة ، فيخرج فيجلس عليها ، وعليه الخشوع ، ولايزال يتبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ .

ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدّث عن رسول الله ﷺ . وقيل لمالك فى ذلك فقال « إنى أحب أن أعظم حديث رسول الله ــ ﷺ ــ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا » .

وكات يكره أن يحدث فى الطريق أو وهو قائم ، ؟ مستعجل ، وقال : أحب أن أفَهّم حديث رسول الله ــ ﷺ :

(1) الحجرات : ٤ .

(2) الساج : الطيلسان .

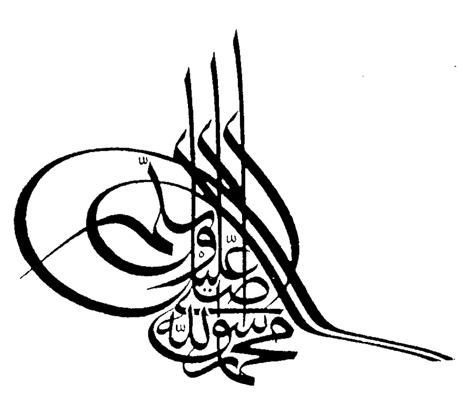
— قال عبد الله بن المبارك « كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغه عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفرّ ، ولا يقطع حديث رسول الله — ﷺ — فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس قلت يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبا » قال « نعم إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله — ﷺ » .

— وكان قتادة يستحب أن لا يقرأ أحاديث النبي — ﷺ — إلا على وضوء ، ولا يحدّث إلا على طهارة .

— وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم .

★★★

وكل ذلك — وغيره كثير — إنما جاء من السلف الصالح والأئمة الكرام توقيرا للرسول — ﷺ — وحبًّا له ، وتعظيما لسنته ووفاء لذكره ﷺ .




المحتويات

صفحة

• **الإهداء** ٥

• **تقديم** ٦

• **الفصل الأول**

□ ملامح الصورة □ ١٠

أولا ــ الملامح الجسدية ١١

ثانيا ــ الملامح الخلقية والنفسية والعقلية : ١٤

١ ــ الحلم والاحتمال والعفو ١٥

٢ ــ الجود والكرم ١٧

٣ ــ الشجاعة والنجدة ١٩

٤ ــ الحياء والاغضاء ٢٠

٥ ــ حسن العشرة والأدب وبسط الخلق ٢١

٦ ــ الشفقة والرحمة ٢٣

٧ ــ الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم ٢٤

٨ ــ التواضع ٢٥

٩ ــ العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة ٢٦

١٠ ــ الوقار والصمت والتؤدة والمروءة وحسن الهدى ٢٨

١١ ــ الزهد فى الدنيا ٢٨

١٢ ــ الخوف من الله والطاعة له وشدة العبادة ٣٠

١٣ ــ الفصاحة والبلاغة ٣١

• **الفصل الثانى**

□ شرف النسب وجلال المنشأ □ ٣٤

• **الفصل الثالث**

□ الرسول المعصوم □ ٣٨

• **الفصل الرابع**

☐ المكانة الرفيعة ☐ ٤٦

• **الفصل الخامس**

☐ حقيقة الإسراء ☐ ٦٩

• **الفصل السادس**

☐ اعجاز القرآن ☐ ٨٨

• **الفصل السابع**

☐ من حقوق النبي على المسلمين ١١٤

رقم الإيداع ١٩٨٦/٣٨٥٦



٦ شارع البراموني ـ عابدين ـ القاهرة ت : ٩١٤٨٨١